الفصل الثاني

التداخل المعرفي
دراسة في المفهوم

محمد همام[1]

مقدمة

تنطلق المقاربة التداخلية للمعرفة من أن الحقيقة واحدة مثل أن الله واحد، والله هو خالق الحقيقة وهو سببها النهائي، ويشتق معناها وقيمتها من إرادته التي تعد غايتها وغرضها النهائي. كما أن هذه الحقيقة هي التي تنبثق عنها القيمة، والقيمة صياغة للإرادة الإلهية. والمقاربة التداخلية -من وجهة نظر إسلامية المعرفة، الإطار الناظم لهذا البحث- تنطلق من نقد الميثودولوجيا الغربية التي قيدت الغايات وأفرغت العلوم الاجتماعية والإنسانية من متضمناتها الروحية والأخلاقية؛ بل أبعدتها عن دورها الحقيقي في تقرير الحياة والتاريخ. هذا النموذج الميثودولوجي ترسخ في الجامعات الإسلامية عبر التقليد، وغياب الوعي بالنموذج المعرفي الكامن في العلوم والتخصصات، وعدم إدراك تحيزات هذه العلوم والتخصصات، وعدم إدراك تحيزات هذه العلوم والمناهج، بدعوى أن هذه العلوم تحمل حقائق ذاتية تعبّر عن نفسها، عكس المقاربة التداخلية، من

(1) دكتوراه في الآداب تخصص بلاغة وفلسفة، عضو منتدى الحكمة للمفكرين والباحثين بالمغرب.
البريد الإلكتروني: houmam@maktoob.com

obeikandl.com

وجهة نظر إسلامية المعرفة، التي تؤكد أن الإدراك النظري لأية حقيقة لا يتحقق دون إدراك طبيعتها وعلاقتها بالقيمة، فالمقاربة التداخلية تسترجع القيمة إلى صلب العلم وتضفي صفة الإنسانية على البحث، ويعود المثل الأعلى ليحتل موقعه الطبيعي والمركزي في حياة الإنسان، مما افتقده مع النموذج العلمي المادي والأحادي الصارم.

والمقاربة التداخلية هي في المحطة الأخيرة احتواء جميع الأنشطة المعرفية الإنسانية، نظرياً وتطبيقياً، داخل دائرة القناعات الإيمانية، ولها مسوغاتها النظرية والواقعية والمنهجية، أمام الوضع الشقي للإنسان اليوم بسبب المعرفة اللادينية والأحادية والتخصصية الضيقة بالرغم من منجزاتها المادية. وعليه، لم تعد المعرفة وفق المقاربة التداخلية هي "كل معلوم خضع للحس والتجربة" حسب تعريف اليونسكو، وهو تحديد علماني مادي مغلق، بل أصبحت المعرفة، وفق المقاربة التداخلية، من منظور إسلامية المعرفة، هي "كل معلوم دل عليه الوحي والحس والتجربة، وتداخلت العلوم والمعرفة وتكاملت لإنتاجه، منهجياً وتطبيقياً". بذلك تتجاوز إسلامية المعرفة إسنادات العقل الطبيعي- العلمي الغربي، وتفتح آفاقاً علمية جديدة بمداخل معرفية ومنهجية متكاملة.

أولاً: مفهوم التداخل والأسرة المفاهيمية له

1 - تعريفات التداخل

التداخل مصطلح حديث، ولا يستعمل كثيراً بوصفه آلية تحليلية أو تفسيرية لظواهر معرفية، تتعلق بالعلاقات بين العلوم وتفاعلها لمعالجة إشكالية بحثية. وعليه، لن تفيدنا المعاجم اللغوية العامة أو الاصطلاحية الخاصة إلا في إضاءة بعض جوانب مصطلح "التداخل"، أو تبين بعض الجذور الدفينة في دلالاته اللغوية الأصلية، أو في علاقته ببعض ألفاظ أسرته الاشتقاقية، أو المفاهيمية كما سنرى في الفقرة اللاحقة.

وقد تناول ابن منظور بالتعريف، في مادة [دخل]، مجموعة من المشتقات التي تفيدنا في تلمس بعض المعاني الإيجابية والسلبية لمصطلح التداخل في مجاله التداولي، سواء من الناحية العلمية النظرية أو الأخلاقية والسلوكية؛ فالدلالة المادية قد توحي بما هو إيجابي أو بما هو سلبي: "فالـمُدَّخَل شبه الغار يدخل فيه، وهو مفتعل من الدخول، ويقال: فلان حسن المدخل والمخرج أي حسن الطريقة محمودها."[2] وقد يقال العكس: أي قبيح المدخل والمخرج. أمّا الدلالة المعنوية، فقد أوردها ابن منظور في سياق سلبي عندما قال: "والـمُدخل: الدَّعيّ، لأنه أدخل في القوم [وفي معنى آخر] الدخيل: الضيف والنزيل، ورجل متداخل، ودُخَّل: كلاهما: غليظ، دخل بعضه في بعض. وناقة متداخلة الخلق: إذا تلاحكت واكتنزت واشتد أسْرها."[3] كما أورد ابن منظور دلالة سلبية أخرى في سياق الحديث عما هو فكري وتصوري، فقال: "والدَّخل: ما داخل الإنسان من فساد في عقله أو جسمه، وقد دَخِل دَخَلاً ودُخِل دَخْلاً، فهو مدخول أي في عقله دَخَل. وفي حديث قتادة بن النعمان: وكنت أرى إسلامه مدخولاً؛ والدخل، بالتحريك: العيب والغش والفساد، ويعني أن إيمانه كان فيه نفاق."[4]. ويتحدث ابن منظور مباشرة عن التداخل ويقول: "وتداخل المفاصل ودِخالها: دخول بعضها في بعض (...) الدِّخال: مداخلة المفاصل بعضها في بعض. وتداخل الأمور: تشابهها والتباسها ودخول بعضها في بعض. والدِّخلة في اللون: تخليط ألوان في لون."[5]

وإذا كان "التداخل" يَرِد عند ابن منظور في سياق سلبي، لغلبة المعايير السلوكية، فإن لفظة "المعارف" ترد ضمن مشتقات مادة "عرف"، محملة بدلالات

(2) ابن منظور، جمال الدين. **لسان العرب**، بيروت: دار الكتب العلمية، ودار صادر، 1415هـ/1991م، مادة [دخل]، ج11، ص240.

(3) المرجع السابق، ج11، ص242.

(4) المرجع السابق، ج11، ص241.

(5) المرجع السابق، ج11، ص243

مادية صريحة،[6] مما يحرجنا في محاولة البحث عن عمليات إسناد ممكنة بين "التداخل" و"المعارف" من خلال "لسان العرب" لابن منظور؛ ذلك أن هذا المعجم الضخم، ما زال غير مستثمر وغير منظم بما يلزم، وبما يخدم الدرس المعرفي الحديث وقضاياه المعقدة، في غياب رؤية معجمية متسقة وترتيب مفاهيمي واصطلاحي، على أساس حقول المعرفة وليس جذور الكلمات.

وأمّا الشريف الجرجاني، فقد أعطى تحديداً كمياً للتداخل؛ إذ عدّه "دخول شيء في شيء آخر بلا زيادة حجم ومقدار."[7] وهذا التعريف يحوّل "التداخل" إلى زيادة أكثر مما هو مفهوم نظري أو آلية تحليلية.

ووجدنا في بعض المعاجم الاصطلاحية ما يسمى "تجنيس التداخل"، وهو الذي يوجد في إحدى كلمتيه حرف لا يوجد في الأخرى، وجميع حروف الأخرى موجود في الأولى، وقسم في وسطها وقسم في آخرها، مثال الأولى: ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ﴾ [القيامة: 29-30] ومثال الثانية: قول بعضهم: "من جد وجد"، ومثال الثالثة قول أبي تمام:

يَمُدُّونَ مِنْ أَيْدٍ عواصٍ عواصِمٍ تَصولُ بِأسيافٍ قواضٍ قواضِبِ

وقد تكون الزيادة حرفين؛[8] فالحديث هنا يكون عن العلاقة بين لفظتين من حيث التشابه والاشتراك في بعض الحروف.

لم تبرز -إذن- الكثافة الاصطلاحية لمفهوم التداخل في المعاجم القديمة، مما يزيد تأكيداً لدينا أن المصطلح في أصله منقول من فضاء ثقافي ومجال تداولي آخر، سيتسرب إلى المحيط التداولي العربي عبر ترجمات مختلفة ومتضاربة في أحايين كثيرة. فالمصطلح الذي سيعرف في الفكر الغربي الحديث هو

(6) المرجع السابق، مادة [عرف]، ج9، ص236، 238، 242.

(7) الشريف الجرجاني. **التعريفات**، بيروت: مكتبة لبنان، د.ت، ص56.

(8) مطلوب، أحمد. **معجم المصطلحات البلاغية وتطورها**، مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1406هـ/1986م، مج2، ص67.

L'interdisciplinarité، ويترجم بتكاملية أو تداخلية المعارف، وهي التي تهتم بالتبادل الذي يقوم به أشخاص أصحاب تخصصات متعددة، ولكن في إطار تكاملي أو تداخلي، لتقديم خدمات جيدة لزبائن يحملون مشكلات متنوعة، فهؤلاء المتخصصون يشكلون وحدة مهنية في فضاء موحد، وكفاءات متنوعة، لكنها متعاونة. ومن أجل هدف واحد، وقرارات الفريق المتكامل أو المتداخل تتخذ بالتراضي، والأعمال تنجز باتفاق، وفق مقاربة متشابكة المستويات Multidimensionnelle بحسب حاجيات الزبون. والمتكاملون أو المتداخلون في عملهم مدركون أن حاجيات الزبائن لا يمكن تلبيتها إلا بعمل متعاون ومتكامل أو متداخل، وهذا التعاون يتطلب أعمالاً جماعية على صعيد كل تخصص للرفع من المردودية في الإنتاج في إطار تعاوني. وتعاون هذه الكفاءات هو الذي يعطينا –في الأخير– هوية جديدة ولوناً جديداً للمتعاونين. وهذا المجهود ينسب –في الأخير– إلى المجموع المتكامل أو المتداخل وليس إلى تخصص بعينه.[9]

والملاحظ أن "التداخل" ما زال مختلطاً بمفهوم "التكامل"، ثم إن الحمولة الدلالية للمفهومين ما زالت مشبعة بمضامين حقل نشوئها، وهو الاقتصاد والعمل في إطار مقاولات المال والأعمال، مما جعل الغايات النفعية والتداولية للمفهوم بارزة، قبل أن ينتقل إلى الحقل النظري العلمي الذي نشتغل فيه الآن. وقد استعملنا في ترجمتنا في البداية لمصطلح Interdisciplinarité "التكامل" إلى جوار "التداخل؛ إذ إن أغلب الترجمات التي استثمرت المصطلح، وهي قليلة، تتراوح بين "التكامل" و"التداخل"؛ فمحمد عزيز الحبابي ترجم Interdisciplinarité بـ "تكامل أصناف المعرفة."[10] كما ترجم باحث آخر المصطلح بـ"التداخل النصوصي."[11]

(9) Voyer, Philippe. "L'interdisciplinarité, un Défi à Relever." *L'infirmière canadienne*, Mai 2000, p. 39–44.

(10) الحبابي، محمد عزيز. "من الشخصانية إلى الغدية"، **مجلة المناظرة**، س1، ع2، جمادى الأولى، 1410هـ/1989م، ص17.

(11) Said, Edward. "Traveling Theory." In *The World, the Text, and the Critic*. London: Faber and Faber, 1983, p. 234.

وتأسست جمعية علمية بالمغرب تحت اسم "Association Marocaine de l'Interdisciplinarité" وترجمتها "الجمعية المغربية لتكامل العلوم."[12]

وقد رجحنا لفظة "التداخل" على "التكامل" لشمولية مصطلح "التداخل" واتساعه أكثر من التكامل، ولأن التداخل ليس بالضرورة تكاملاً، ثم إن التكامل لا يحقق بالضرورة المطلب العلمي الأساسي، وهو الإبداع المكثف والتناول الشامل للظواهر المعرفية المعقدة. كما أن لفظ التداخل يفتح فرصاً للتواصل بين العلوم دون تكامل بينها، جزئياً أو كلياً، إلا أن "التداخل" لا يلتبس معناه بـ"التكامل" فقط، بل هناك مصطلحات كثيرة تشتبه في معانيها مع التداخل من وجوه كثيرة، كما تمتلك حمولة اصطلاحية مرتفعة.

2 – الأسرة المفاهيمية للتداخل

واجهتنا مجموعة من المصطلحات التي يلتبس معناها جزئياً أو كلياً مع معنى "التداخل"، وقد وجدنا فعلاً من يستعملها على جهة الترادف والدلالة المتماثلة؛ سواء في الكتابات الأجنبية أو الكتابات العربية. وإذا كنا قد رجحنا مصطلح "التداخل" للدلالة على المصطلح الأصلي (L'interdisciplinarité)، فإن مصطلحات: (Multidisciplinarité) "تشابك التخصصات"، و(Pluridisciplinarité) "تعدد التخصصات"، و(Transdisciplinarité) "العبر منهجية"، في حاجة إلى فرز دلالي حتى نخلص المصطلح المصطفى "التداخل"، من كل المشوّشات والمتشابهات.

فمصطلح Multidisciplinarité هو مفهوم تحليلي يقوم بعملية ضبط معارف كثيرة ومتنوعة، ثم الربط بينها، واستعمالها بشكل متوازٍ، من غير أن تكون هناك علاقات سابقة بينها،[13] فهو أقرب إلى جمع اختصاصات واستعمالها في وقت

(12) انعقد جمعها العام التأسيسي يوم 11ماي 1996م، وقد حضره عدد من الأساتذة والباحثين المنتمين إلى مجالات معرفية عديدة؛ من فيزياء وكيمياء وبيولوجيا ورياضيات وأدب ولسانيات ومنطق وفلسفة وتاريخ وجغرافيا وسوسيولوجيا ودراسات إسلامية.

(13) Voyer, "L'interdisciplinarité, un Défi à Relever", p. 39–44.

واحد منه إلى ضبط العلاقات البينية (Inter) بينها. وMultidisciplinarité بترجيحنا نوعٌ من تشابك التخصصات. وهناك من يرى أن استعمال المصطلحين بطريقة تبادلية، لا يشكل حرجاً علمياً إذا حدد نوع التعاون والتبادل بين الأشخاص المتخصصين، أو المعارف أو التخصصات المتعددة. لكن تعريف المصطلحين قد يختلف إذا ما أردنا التدقيق في العمليات المختلفة للتعاون؛ فعلى سبيل المثال، إحضار مجموعة من المتخصصين من تخصصات أو مهن مختلفة، ليقدم كل واحد مساهمته في مشروع بسيط، الذي لا يمكن أن يكتمل بمهنة واحدة أو تخصص واحد، ليس هو بالضرورة العملية نفسها التي يقوم بها جماعة من الباحثين المتخصصين من تخصصات مختلفة لإنتاج مفاهيم مبتكرة جديدة، وكشف مختلف مستويات التفسير؛ فالعملية الأولى هي ما أسميناه بـ"تشابك التخصصات" Multidisciplinarité؛ إذ يساهم كل شخص بخبرته في المشروع، والعملية الأخيرة هي ما أسميناه بـ"تداخل المعارف" Interdisciplinarité؛ وفيها تطرح أسئلة البحث والقضايا المعرفية والمنهجية بين المعارف والتخصصات[14].

وقد يستعمل المصطلحان: "تداخل المعارف" (Interdisciplinarité) و"تشابك التخصصات" (Multidisciplinarité) بمعنى واحد؛ وغالباً ما يكون المقصود في هذه الحالة هو الإشارة إلى باحثين من تخصصات مختلفة، أو مجالات متباعدة في أصلها، يتعاونون على هدف واحد، سواء كان البحث تطبيقياً أو نظرياً. فعلى مستوى البحث النظري يقصد بالمصطلحين الطريقة التي يتعاون بها مجموعة من الأكاديميين من تخصصات مختلفة: علماء نفس وأنثروبولوجيين واقتصاديين وإعلاميين، لتطوير معرفة واسعة لوضعية ما أو ظاهرة ما. بينما على المستوى التطبيقي يستعمل المصطلحان لوصف عملية جمع فريق من الأخصائيين، من مجالات مختلفة مثل: تكنولوجيا التعليم، وعلماء الحاسوب وأخصائيي الأعضاء البشرية، لتطوير منتوج معين، من خلال تطبيق برامج معلوماتية مثلاً.[15] وعلى هذا الأساس يكون الفرق الرئيس بين "تشابك المعارف" (Multidisciplinarité)

(14) *N'est-il pas Assez de Multidisciplinarité?*

(15) *N'est-il pas Assez de Multidisciplinarité?*

و"تداخل المعارف" (Interdisciplinarité) على مستوى آليات البحث ونتائجه؛ إذ تضطلع الأبحاث التداخلية بمهمة اشتقاق مفاهيم جديدة ومناهج وأنساق نظرية من أخرى منتسبة إلى تخصصات مختلفة، مثل علم الاقتصاد البيئي، فيتم دمج بعض الجوانب العلمية في بعض الأحداث البيئية مع نتائجها الاجتماعية، لإنجاز تقسيمات موضوعية لجوانب بيئية عدة. أمّا المقاربة عبر "تشابك التخصصات"، فتضطلع بمهمة تطوير الفهم الجديد والاستخدام الجيد لما قمنا به عبر البحث التداخلي، من خلال تكييف المفاهيم الموجودة، والمناهج والأنساق النظرية، والأفكار المستعارة من الآخرين. وهذا ما ينتمي عادة، سواء عبر البحث التداخلي، أو البحث عبر "تشابك التخصصات"، إلى إطار العلم المعرفي (science cognitive).

أمّا مصطلح (Pluridisciplinarité)، فهو التقاء حول موضوع واحد بين مجموعة من الباحثين، ومن تخصصات مختلفة، ولكن مع احتفاظ كل واحد منهم بمفاهيمه ومنهجه. ويمكن ترجمة المصطلح بـ"تعدد التخصصات"؛ فالمقاربة في هذه الحالة هي أيضاً متوازية من أجل هدف واحد وبتعاون خاص لتحقيق هدف ما.

وتشترك المقاربة المتعددة التخصصات مع المقاربة عبر "تشابك التخصصات"، في ضبط الاستعمال المتداخل لتخصصات متعددة من أجل مردودية أكبر في مجالات عدة.[16]

وأمّا مصطلح (Transdisciplinarité)، فهو وصف للمعرفة المتنقلة بين تخصصات متنوعة أو العابرة للحدود الفاصلة بين التخصصات.

ولما رجحنا مصطلح "التداخل" بوصفه آلية تحليلية وتفسيرية لعلاقات الترابط والتعارف والتواصل بين المعارف، كان لزاماً ذكر مجموعة من المصطلحات التي تنتمي إلى أسرته المفاهيمية، بل وتقوم بدوره في مستويات كثيرة، أو قل هي إحدى تجليات التداخل بحسب العلاقة بين المعارف، وبحسب طبيعة الظاهرة العلمية

(16) Voyer, "L'interdisciplinarité, un Défi à Relever", p. 39–44.

المدروسة، أو الإشكال المعرفي المطروح. فقد وجدنا من يتحدث عن التداخل بمصطلحات أخرى؛ كـ"التعالق" [17]Mise en relation أو "التفاعل" Interaction،[18] أو "التراكب" Chevauchement،[19] أو "الاندماج" Absorption.[20] ومصطلح الاندماج يتوزعه حقلان معرفيان؛ هما: الاقتصاد، والاجتماع. ففي الاقتصاد، يعني

(17) فيلار، ماساكو. "الكليات الاستعارية، دراسة تقابلية للاستعارة بين اليابانية والفرنسية مع ملحق عن مفهوم الاستعارة في اليابان"، تقديم أبو بكر العزاوي، **مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية**، ع2، شتاء 1987م/ ربيع 1988م، ص145.

(18) Dogan, Motteï, et Robert Pahre. *L'innovation Dans Les Sciences Sociales: La Marginalité Créatrice*. éd. Paris: PUF, 1ère éd., Mai 1991, p. 128.

انظر معنى "التفاعل" في:

- إدريس، سهيل. **المنهل، قاموس فرنسي-عربي**، بيروت: دار الآداب، ط15، 1995م، ص667.
- Nouveau Petit, Robert. "Interaction", p. 1193.

(19) Dogan et Pahre. *L'innovation Dans Les Sciences Sociales*, p. 115.

انظر أيضاً:

- إدريس. **المنهل، قاموس فرنسي- عربي**، مرجع سابق، ص362.

(20) الحبابي، محمد عزيز. **المعين في المصطلحات الفلسفية والعلوم الإنسانية**، الدار البيضاء: دار الكتاب، ط1، ج1، ص59-60. انظر أيضاً في معاني "الاندماج":

- إدريس. **المنهل، قاموس فرنسي- عربي**، مرجع سابق، ص24.

وقد نتصور أن كل المعاني التي توحي بها هذه المصطلحات تقع في المجال العلمي، من خلال التداخل بين المعارف؛ فالاندماج مثلاً رأينا معانيه في الاقتصاد والاجتماع؛ فقد يندمج علم في علم أو أكثر مشكلين حقلاً علمياً متداخلاً آخر. وقد يندمج علم في مجموعة علوم. كما أن للاندماج معاني أخرى، مثل ما نجده في السيكولوجيا المجتمعية؛ إذ يستعمل إلى جانب مصطلحي "التكيف" و"التمثل". وهما العمليات التي يقوم بها الفرد لتكييف سلوكه في بيئة ما، باقتباس المواقف المناسبة وأكثرها شيوعا، والسير على ما يحدث من عادات. وللاندماج معنى في البيداغوجيا (التربة)؛ يعني التمثل والاستيعاب؛ أي القدرة على استيعاب المعلومة الملقنة، استيعاباً يجعلها مكتسبة ومتناغمة ومنظمة في الحياة العقلية. وللاندماج بعض المعاني القسرية؛ كما نجد في التاريخ والحضارة؛ إذ نتحدث عن سياسة إدماج؛ وهو اتجاه سياسي اتبعته الدول الاستعمارية في مستعمراتها؛ أي تطبيق سياسة "الأرجل السوداء" (Les pieds noirs) بمحو مقومات الشخصية القومية لدى الأهالي، بالقضاء على الثقافة المحلية، وعلى اللغة، وتزييف التاريخ، ومحو آثار الحضارة. انظر:

- الحبابي. **المعين في المصطلحات الفلسفية والعلوم الإنسانية**، مرجع سابق، ص241-242.

اندماج شركتين أو أكثر لمصلحة إحداهما. وفي الاجتماع هو اندماج الأفراد في الجماعة. ويقترب أيضاً من التداخل "الانضمام"، وهو من فعل "انضم" Adhérer ويدل في أحد معانيه على الانخراط في هيئة أو جماعة أو مذهب بعد التصديق على أفكاره أو الموافقة عليها.[21] فهو إذن متداخل في معانيه مع أفعاله من أسرته المعنوية مثل: التصق والتحم والتحق والتزم وتنافذ،[22] وتناظم.[23] ويبقى بنظرنا مصطلح "التداخل"، الأكثر دلالة، والأكثر كثافة من الناحية المصطلحية للتعبير عن هذا التوجه العلمي الجديد الذي نتحدث عنه اليوم في هذا البحث، بل إن المصطلحات التي ذكرناها سالفاً تعدّ رافداً غنياً لمصطلح "التداخل"، وتجلياً جزئياً من تجلياته. أمّا مصطلح "التداخل"، فهو محور العملية ونواتها الصلبة.

ثانياً: تداخل المعارف ظاهرة علمية جديدة

1 – التوجه العلمي الجديد

لقد تطور العلم الغربي في اتجاه أحادي؛ فتحول إلى مؤسسة اعتقادية مستقلة عن العناصر المعرفية الأخرى؛ فنفى الدين والثقافة، بل أصبح هو ذاته ديناً وثقافة، بل ومنظومة مرجعية صارمة ومحددة. وسينتج عن هذا الدين الجديد معرفة ترسخ فهم الإنسان والطبيعة على أساس مادي محض. وبالوصول إلى عدمية "نيتشه"، ستغيب طبيعة الإنسان أو ما يسميه إدغار موران Edgar Morin

(21) المرجع السابق، ص98. انظر معاني فعل "انضم" في:
– إدريس. **المنهل**، مرجع سابق، ص37.
– Nouveau Petit, Robert. "Interaction", p. 24.

(22) عن "التنافذ" (Interpénetration)، انظر:
– إدريس. **المنهل؛ قاموس فرنسي– عربي**، مرجع سابق، ص670.

(23) المرجع السابق، ص668. ويعدّ سهيل إدريس المتناظم، هو المتعلق بعدة أنظمة أو بعدة فروع من العلم مشتركة في العمل.

"الأنموذج المفقود" Le paradigme perdu،[24] أو "الكوكب التائه" Astre errant،[25] وكلنا فيه غرقى[26]. فالعلم أصبح أعمى ولا يرى طبيعة مصيره ولا مساره ولم يعد يفكر حسب هيدغر،[27] مما سيجعل " نيتشه " في الأخير، يتهم الحضارة الغربية بعدم التفكير، بل الخوف من التفكير!

ولتجاوز هذا الوضع المحرج الذي وصل إليه العلم الغربي، بدأ توجه جديد يشق طريقه مخلخلاً البنية الفلسفية المادية لنظرية العلم الغربي، ذات النزوع الوضعي المتطرف؛ فبدأ التشكيك في قيمة العلم المادي وإمكانية حفاظه على مستقبل الإنسان، وضمان راحته وأمنه؛ وأتت الأفكار الجديدة مع "هايزنبرغ" عام 1925م، وتطورت مع "باولي" و"شرودينغر" و"آينشتاين" و"بور". وتعمقت هذه الأفكار اليوم مع "كابرا" و"فايرابند" و"توم"، بالإضافة إلى المؤتمرات والملتقيات التي تجمع نخباً من كل التخصصات، ومن كل الثقافات؛ لإعادة طرح معادلة العلم والإيمان، ووحدة المعرفة الدينية والعلمية، وعلاقة الثقافة بالعلم، وتكامل المعارف وتداخلها.

والاهتمام بالموضوع لم يعد مقتصراً على المجال الحضاري الغربي؛ بل أصبح يشارك في التفكير فيه والحوار حوله مراكز بحث تنتمي إلى مجالات حضارية وثقافية أخرى؛ أمريكية ولاتينية وآسيوية وإفريقية، مما جعل من الموضوع عنواناً بارزاً لتداخل المعارف، وتدافع الثقافات، ونقطة محورية لالتقاء الحضارات. ولكن هذا النقاش العابر للثقافات Transculturelle يجعلنا لا نغفل أن أغلب الدراسات النظرية والمنهجية لظاهرة تداخل المعارف قد أنجزها باحثون غربيون. ولم نظفر في المجال العلمي العربي إلا بالنزر القليل، مما سنشير إليه في

(24) Morin, Edgar. *Le Paradigme Perdu: La Nature Humaine*, Paris: Seuil, 1973.

(25) Morin, Edgar. "La Terre Astre Emant." *Le Monde*, 14/02/1990.

(26) Latouche, Serge. *La Planète Des Naufrages*, Paris: La Découverte, 1991.

(27) Heidegger, Martin. *Qu'appelle-t-on Penser*. Éd, Paris: PUF, 1983.

حينه. وبالرغم من أن البحث التداخلي في الغرب نفسه لم يكتس طابع النظرية المتسقة والشمولية، لكنه يبقى أبرز إطار للأنظمة المفاهيمية، وأهم برنامج بحث يستقطب الباحثين والمفكرين، وعلى أساسه تقوم أغلب المبادرات العلمية المثمرة اليوم،[28] التي سمحت لمتخصصين كثر بمغادرة حياة التخصص الراكدة إلى مياه حقل تداخلي جديد جارية ومتغيرة. وأصبح البحث العلمي الجماعي والتداخلي هو السبيل الأساس لتحقيق الإبداع، من خلال مجموعات وفرق وحلقات بشكل تعاوني وتنسيقي محكم ونافع. لكن هذه الأشكال البحثية الجديدة ما زالت ذات أثر محدود،[29] كما أنها تلاقي بعض الصعوبات الموضوعية في بعض المجالات الحساسة كالتعليم مثلاً،[30] ولا سيّما في الغرب. أمّا في العالم العربي فما زالت التوعية بهذا التوجه العلمي الجديد مطلباً أولياً وأساسياً.

2 – أبرز المجهودات النظرية والمنهجية في مجال تداخل المعارف

يعدّ إدغار موران أبرز باحث في مجال تداخل المعارف. وكان كتابه "الربط بين المعارف."[31] أهم مرجع في المجال؛ إذ كان خلاصة مجموعة من الدراسات والمؤتمرات لدراسة التداخل المعرفي وتحقيق التواصل بين العلوم الحقة أو الموضوعية والعلوم الإنسانية، وترسيخ وعي تداخلي بالظاهرة العلمية والمعرفية. كما نشر دراسات عن "التداخل المعرفي" تحدّث فيها عن تقسيم المعرفة إلى تخصصات، وأشار إلى ما ظهر منذ خمسين سنة في حقل المعرفة والعلوم؛ وهو أن العلوم أصبحت تتجاوز حدودها التخصصية من خلال تنقل المبادئ والمفاهيم، ويرجع هذا إلى آثار "باسكال" عن "المعرفة المتحركة" Connaissance

(28) Dogan et Pahre. *L'innovation Dans Les Sciences Sociales*, p. 279.

(29) bid.، p. 157.

(30) Apostel, Leo et all. "L'interdisciplinarité: Problèmes d'enseignement Dans les Universités". Paris: Organisation de Coopération et de Développement Economiques, 1972. p. 2.

(31) Morin, Edgar. *Relies les Lonnaissances: Le défi du XX^{ème} Siècle*. Paris: Seuil, p. 471.

en mouvement.[32] كما ألّف الباحث جون بول ريزوبرغ (Jean Paul Resweber) كتاباً مهماً عنوانه "رهان التخصصات العابرة: نحو تكامل المعارف" Le pari de la transdisciplinarité: vers l'intégration des savoirs،[33] عدّ فيه البحث التداخلي إطاراً جديداً لإدماج المعارف والأفكار، وعلاجاً لكثير من الإفرازات السلبية للأحادية العلمية التي سيطرت على نظرية المعرفة مدة طويلة. وقد عالج في كتابه مفهوم تداخل المعارف من وجهة بيداغوجية (تربوية) (الفصل الأول والثاني)، ومن جهة إبستمولوجية (معرفية) (الفصل الثالث والرابع)، وخصص الفصل الخامس لمفهوم تطبيقي أسماه "التداخل الوظيفي للمعارف"، وخلص في الخاتمة إلى الأهمية القصوى لتلاقي العلوم وتداخلها.

وألف الباحثان روبار باهر (Robert Pahere) ومتاي دوجان (Mottei Dogan) كتاب "التجديد في العلوم الاجتماعية الهامشية المبدعة" L'innovation dans les sciences sociales، la marginalité créatrice.[34] وبالرغم من تحفظهما النسبي على مفهوم التداخل المعرفي في غياب تحاليل دقيقة لمساره،[35] إلا أن الكتاب في عمومه أكد على أن الخَلْق والابتكار والتجديد والإبداع في فكر العلوم الاجتماعية الحديثة ونظرياتها، اقترن اقتراناً شديداً بعلماء العلوم الاجتماعية الذين تجاوزوا حدود تخصصاتهم الأصلية، واحتكوا بتخصصات أخرى هامشية؛ أي ما أطلق عليه المؤلفان تخصصات ما وراء الحدود.

ويلخص المؤلفان في المقدمة أطروحة كتابهما بالقول: "وكما يوحي بذلك عنوان هذا الكتاب: فالفكرة الرئيسية، التي سوف نقوم بشرحها، تقول بأن التجديد

(32) Morin, Edgar. "Sur L'interdisciplinarité." *Bulletin Interactif du Centre Interaction de Recherches et Etudes Transdisciplinaires, N° 2*, Juin 1994.

(33) Resweber, Jean Paul. *Le Pari de La Transdisciplinarité : Vers L'intégration des Savoirs*. Paris: Harmattan, 2000.

(34) Dogan et Pahre. *L'innovation Dans Les Sciences Sociales*.

(35) Ibid., p. 16.

والإبداع في العلوم الاجتماعية، يظهر غالباً ويؤدي إلى نتائج أكثر أهمية إذا كان نتيجة لتجزئة متواصلة للعلوم الاجتماعية إلى تخصصات فرعية ضيقة، وإلى عملية تأليف جديدة أفقية لتلك التخصصات، وذلك داخل ما نسميه بالحقول أو الميادين المتلاقحة Les domaines Hybrides".[36] إن مقولة هذا الكتاب تتلخص في أن ظاهرة التجديد والإبداع في العلوم الاجتماعية، تأتي أساساً من تلاقح العلوم وليس من انعزالها عن بعضها بعضاً، والإفراط في الانحسار داخل التخصص الضيق؛ فالنظريات والمفاهيم والقوانين وأدوات البحث ومناهجه تكون بنظر مؤلفي الكتاب، في العلوم الاجتماعية، نتيجة للتفاعل والتداخل والتلاقح بين تخصصات هذه العلوم. بل إن التقدم العلمي الحاسم غالباً ما يكون حصيلة لدمج رؤيتي علمين أو أكثر مع بعضها بعضاً.[37]

وبفضل هذه الأبحاث المؤسسة، تكونت فرق تداخلية في مجالات معرفية عدة؛ كالتربية والتكوين، وظهرت دراسات تبحث في شروط تسهيل الإنتاج المعرفي المشترك بين تخصصات عدة. واقترح الباحث بلانشارد لفيل كلودين Blanchard-La Ville Claudine مفهوم "تشارك المعارف" Co-disciplinarité بدلاً من "تداخل المعارف" Interdisciplinarité.[38]

وفي عدد خاص للمجلة التربوية الفرنسية،[39] حاول عدد من الباحثين المهتمين بظاهرة تداخل المعارف ضبط العلاقات الموجودة بين تداخل المعارف والتخصصات، وبين المعلوميات ومجال التربية والتكوين. وخلصوا في أبحاث

(36) Ibid., p. 11.

(37) Ibid., p. 35.

(38) Blanchard-La ville, Claudine. "De la Co-disciplinarité en Science de L'éducation." *Revue Française de Pédagogie*, N° 132, Juillet-Septembre 2000, p. 55-66.

(39) Lenoir, Y., et L. Sauvé. "De l'interdisciplinarité Scolaire à L'interdisciplinarité Dans La Formation à L'enseignement: Un état de La Question." *Revue Française de Pédagogie*, Juillet-Septembre 1998, N° 124, p. 121-153. Et Octobre-Décembre 1998, N° 125, p. 109-146.

كثيرة إلى إيجابيات تداخل المعارف على مستوى البحوث العلمية، وكذا البرامج المدرسية وعلاقاتها بالمفاهيم المشتركة والمتحولة.

وانعقدت مؤتمرات عدة ،[40] تعالج قضايا التداخل المعرفي والعلاقة بين العلوم وقضايا المعرفة والثقافة ومصير الإنسان؛ ومن أشهر هذه المؤتمرات، مؤتمر قرطبة بإسبانيا (1979م) عن العلم والوعي (science et conscience)، ومؤتمر تسوكوب باليابان (1984م) عن العلم والتركيب (science et synthèse)، ومؤتمر البندقية بإيطاليا (1986م) عن العلم في مواجهة حدود المعرفة (La science face aux confins de la connaissance)، ومؤتمر فاس بالمغرب (1989م) عن العقل والعلم (L'esprit et conscience).

وبدأت تبرز إلى الساحة العالمية مجلات عالمية ذات منحى تداخلي، تنافس المجلات المتخصصة المشهورة؛ ومن المجلات التداخلية التي ذاع صيتها "المجلة القانونية الاقتصادية"، ومجلة "القانون والسياسة القضائية."[41] وثمة تطور لمجلات التداخل عبر النشر الرقمي، مما يسمح بالتواصل أكثر بين الباحثين والمجموعات العلمية.[42]

ثالثاً: أسباب بروز ظاهرة تداخل المعارف

1 - الأسباب الظاهرة

أ - التداخل مطلب إنساني وواقعي

ينطلق هذا الرأي من أن الإنسان متداخل في ذاته؛ ففي داخل الشخص تمتد الشخصيات وتسترسل ما دام كل شخص يحمل في صميمه كل الشخصيات

(40) المرابط، مصطفى. "العلم والثقافة"، **مجلة المنعطف**، المغرب، ع11، 1416هـ/1995م، ص13.

(41) Dogan et Pahre. *L'innovation Dans Les Sciences Sociales*, p. 208.

(42) Ibid., p. 211.

الممكنة، ويحتفظ بمجموع الشخصيات الماضية.[43] وبعبارة أخرى تجتمع في داخله ثقافات وعلوم ومفاهيم متعددة، ففي داخل الإنسان إذن يجتمع العلم والثقافة. وما يطرحه هذا الاجتماع من إشكالات متعددة، يحتاج إلى تعدد المعارف والتخصصات وتداخلها؛ لأننا، بحسب هذا الرأي، نعيش في عالم كل شيء فيه مترابط، عالم تتداخل فيه الظواهر البيولوجية والنفسية والاجتماعية والبيئية والثقافية[44]. كما لا يمكن فهم الذات الإنسانية المتداخلة وعلاقاتها المتعددة المستويات مع العالم والطبيعة إلا من خلال زوايا متعددة، والاستعانة بتخصصات كثيرة، ووجهات نظر مختلفة؛ فالنظرة الواقعية الجديدة، بحسب كابرا، تتأسس على حقيقة التداخل بين المكونات الفيزيائية والبيولوجية والنفسية والاجتماعية والثقافية.[45]من هنا فالأمر يحتاج إلى إلغاء الحواجز المصطنعة بين مختلف المعارف، وإتاحة الفرصة لها للحوار على أساس أن كل تفحص أو معرفة، يبقى نسبياً ويدرك عمق حاجته للمعارف والتخصصات الأخرى. فالتداخل إذن يبحث عن صيغة للتواصل بين مختلف الأبعاد المكونة للإنسان؛ الفيزيائية والبيولوجية والروحية والثقافية والاجتماعية والتاريخية،[46] للإجابة عن مشكلات الواقع، وتحسين ظروف حياة الإنسان فيه، هذا الإنسان الذي هو في المحصلة الأخيرة وعي جماعي وعبقرية أمة، وليس عنصراً منعزلاً عما يجاوره في هذا الكون، وهذا ما جسده مفهوم الرؤية عند لوكاش أو غولدمان، بالرغم مما يمكن أن يسجل من تحفظات نظرية أو منهجية على استخدام هذا المفهوم في بيئة تداولية مخالفة.

ولما كان البحث التداخلي نشيطاً داخل الحقول التعليمية والتربوية، برزت بعض التفسيرات التي تجعل سبب ظهوره استجابة لمتطلبات تربوية وفكرية

(43) الحبابي. **من الشخصانية إلى الغدية**، مرجع سابق، ص25.

(44) Capra, Fritjof. "Le temps du Changement." *Science Société : Nouvelle culture*, Paris: Ed du Rocher, 1983, p. 12.

(45) Ibid, p. 247.

(46) Morin, Edgar. *Science avec Conscience*, Paris: Seuil, 1990, p. 30.

فحسب. فالتداخل إذن ضرورة أخلاقية وتربوية لاستمرار المعرفة وتحقيق فعاليتها في مجال التعليم والتوجيه .[47] أو ضرورة فكرية نتيجة التطور الديمغرافي التاريخي.[48] وتذهب هذه النظرة الظاهرية لتفسير ظاهرة التداخل إلى حد القول: إنها ليست سراً مفاهيمياً، ولكنها ضرورة تربوية وثقافية مشروعة،[49] يحتاج إليها الإنسان في حياته العامة، أو ضرورة لتربية فكرية وعلمية جديدة، يكون العقل الإنساني فيها متضمناً لكل المعرفة بشكل متكامل ومتداخل ومنظم ومرتب.[50]

ومما ساهم في ترسيخ هذا التفسير الظاهري للتداخل بعض المؤسسات الجامعية، ومعاهد الأبحاث والدراسات، فأصبحت تظهر فيها الترابطات التداخلية بين التخصصات؛ كما أصبحت مترسخة في الأقسام، وبها تنال الدرجات والترقيات. وانعكس هذا الأمر على الجمعيات المهنية، والصحف العلمية. إلا أن بعض الآراء الأخرى كانت أكثر بساطة في تفسير الظاهرة، لما ربطتها بعملية الحوار بين العلوم بوصفه مطلباً واقعياً وإنسانياً في الحياة؛ لأن الحوار بين العلوم هو الذي يحقق الاستفادة من المعرفة ويحدد وظيفتها.[51] كما عدّت بعض الآراء عملية التداخل ضرورة علمية محضة؛ ذلك أن بعض العلوم، ونتيجة تطورها الذاتي، تؤسس لأشكالها التداخلية في رحلتها التاريخية؛ فبعد العلوم الطبيعية والهندسة، أسست العلوم الاجتماعية والإنسانية أشكالاً تداخلية خاصة بها؛ فدراسة النساء، ودراسة الثقافة الشعبية، ودراسات اجتماعية أخرى، لا تجد صعوبة في ملاحظة آثار التخصصات المختلفة عليها؛ بوصفها مناهج مدارس الأنسنة، والتأويلية، والظاهراتية، والبنيوية، وما بعد البنيوية.[52]

(47) Resweber, Jean Paul. *La Méthode Interdisciplinaire*, Paris: PUF, 1981, p. 24.

(48) Dogan et Pahre. *L'innovation Dans Les Sciences Sociales*, p. 196.

(49) Heidegger, Martin. "L'interdisciplinarité en perspective" *US Magasine*, p. 21.

(50) Resweber, *La Méthode Interdisciplinaire*, p. 34–35

(51) Ibid, p. 12.

(52) "Questioning Interdisciplinarity".

ب – دعوى توحيد العلم

كتب بنجامين كونستن (Benjamin Constant) سنة 1813م يقول: "إن الحديث الذي يتردد على الألسنة اليوم هو حديث التأحيد (Uniformité) نفس الرموز ونفس القوانين والنظم، وقد يتدرج بنا الأمر إلى تأحيد اللغة نفسها، ونسعى إلى تحقيق الكمال في كل تنظيم اجتماعي، نأسف لعدم قدرتنا على نسف كل المدن، لإعادة بنائها وفق تصميم واحد، وتسوية كل الجبال حتى تصبح الأرض كلها مهاداً. وأستغرب كوننا لم نأمر بعد بحمل الناس على نفس اللباس حتى لا يصطدم وينزعج (السيد) برؤية مناظر مشينة.[53]

كان من نتائج هذه العقلية الأحادية المتعطشة أن برز مفهوم العالمية في المعرفة أو وحدة المعرفة الإنسانية، وأصبحت من السمات المهمة للعلم الحديث،[54] كما أصبحت الدعوى إلى النسقية العلمية؛ أي إحكام البحث العلمي وجعله مرتكزاً في شتى ممارساته على أصولية منهجية صارمة، ترتد في صورة خصائص منطقية دقيقة؛ تحدد لظاهرة العلم تخوماً واضحة، مما يكفل تآزر الجهود العلمية، فيجعلها تمثل متصلاً صاعداً يواصل تقدمه باستمرار ويلقي في جوانحنا الثقة، بأن غده أفضل من يومه، تماماً كما أن يومه أفضل من أمسه، فتمثل كل ممارسة من ممارسات العلم الطبيعي إضافة لرصيده، أو بالأحرى للإنسانية.[55]

والجدير بالذكر أن تشكل نسق العلم على هذا النحو أدى إلى فكرة سادت آنذاك عن العلم الواحد الموحد؛ بمعنى رد كل العلوم إلى الفيزياء ومعالجة سائر الظواهر، وحتى الظواهر النفسية في حدود مصطلحات الفيزياء ولغتها. وفي إطار

---

(53) لاتوش، سرج. "تنميط العالم؛ محاولة في فهم آليات التغريب ومحدودياته"، ترجمه وعلق عليه ووضع هوامشه: مصطفى المرابط، ومحمد أمزيان، المغرب: **مجلة المنعطف**، ع11، 1416هـ/1995م، ص45.

(54) الخولي، يمنى طريف. **فلسفة العلم في القرن العشرين**، الكويت: المجلس الأعلى للشؤون والثقافة، سلسلة عالم المعرفة،ع264، ص41.

(55) المرجع السابق، ص50.

من العلم الموحد الذي كان مشروعاً لم يحرز أي نجاح، على الرغم من أنه، مثل سائر تصورات العلم الكلاسيكي، يحدوه النجاح الذي أحرزته الفيزياء، وعلى وجه التحديد فيزياء نيوتن، المثل الأعلى المطروح، التي حددت إطار نسق العلم الحديث ليكون بحق أنجع المشاريع التي أنجزها الإنسان.[56] وعلى هذا الأساس أصبحت العلاقات اللزومية، من خلال الرياضيات والمنطق والفيزياء، معياراً لكل العلوم. وشنت حملة شعواء على كتب الميتافيزيقا، ودعا هيوم إلى إلقائها في النار،[57] تجسيداً للروح العلمية المقتصرة على التجريب، والرافضة لأية أبعاد أخرى لا يضبطها نسق العلم الصارم. وذهب هذا الطموح العلمي الجامح إلى حد إلغاء العلاقات بين الإنسان والحيوان وربما الجماد؛ أي أصبحت الظاهرة الإنسانية، بحسب هذه الدعوى، تشكل متصلاً واحداً مع الظاهرة الطبيعية، يسري عليها القانون العلمي الواحد نفسه. فالظاهرة الإنسانية إذن ليست فريدة ولا هي مستعصية على التفسير. قد تختلف في درجة تركيبها عن الظواهر الطبيعية ولكنها في نهاية الأمر، وفي التحليل الأخير، يمكن ردّها إلى القوانين نفسها؛ أي القوانين المادية التي تحكم الظواهر الطبيعية، التي تتجاوز كل الغائيات والأغراض الدينية أو الإنسانية؛ أي غير العلمية.[58] وأخضعت كل الظواهر الاجتماعية لممارسات مناهج البحث في العلوم التجريبية نفسها، بدعوى وحدة العلوم.

وبالرغم من أن هذا التصور التوحيدي للعلم قد خلق جواً للتداخل المعرفي بين التخصصات، إلى درجة أصبح لدينا في المجال المعرفي الواحد مهندس

---

(56) المرجع السابق، ص104–105. بل ذهب تطرف هذه الرؤية إلى حد رؤية العالم نسقاً طبيعياً مادياً متماسكاً، يتسم بالسببية الصلبة الصارمة؛ بمعنى أن كل شيء له سبب مادي بالضرورة، كما لم يعد هناك فارق جوهري بين الإنسان والطبيعة. انظر:

– المسيري، عبد الوهاب. **العالم من منظور غربي**، كتاب الهلال، سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال، مصر، ع602، فبراير 2001م، ص123–124.

(57) المسيري. **العالم من منظور غربي**، مرجع سابق، ص124.

(58) المسيري، عبد الوهاب. **فقه التحيز**، ضمن: **إشكالية التحيز**، تقديم وتحرير: عبد الوهاب المسيري، مصر: منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي ونقابة المهندسين، ط1، 1415هـ/1995م، ص35.

نووي هندي، وتقني روسي خبير في الصواريخ، ومتخصص ياباني في صناعة الحاسوب، ومستشار أمريكي في الهندسة الحيوية، يفكرون كلهم وفق المعايير نفسها، ويستوحون أفكارهم من القيم نفسها، ويجدون أنفسهم متضامنين بشكل تلقائي، يعيشون في رغد العيش داخل عالم علمي موحد،[59] إلا أن دعوى توحيد العلم بقيت طموحاً بعيد المنال، كما أنها لا ترقى إلى الدليل الحق لتفسير مسارات البحث التداخلي، واكتشاف منطقه وتبرير خلفياته، والاستدلال اللازم لغاياته. فهذه الدعوى لم تكن إلا شكلية في مقاربة الظاهرة التداخلية، لتبرير الإكراه العلمي الغربي والرغبة في تأميم البحث، والتحكم في العقول، ثم إنها لم تنجح في فضائها الغربي، إلا في حدود ضيقة، وتعرضت لانتقادات لاذعة؛ فقد رفض (فايرابند) دعوى إخضاع العلم لشروط نسقية صارمة وتجاهل السياقات الثقافية والرغبات الشخصية التي كانت تعدّ غير علمية.[60] بل ذهب الأمر بـ(هيدغر) إلى حد اتهام العِلم بالعجز، وعدم القدرة على التفكير وافتقاد آليات تعرف نفسه، والتفكير في نفسه بنفسه.[61]

3 - الأسباب الخفية

أ - العلم الغربي والتحيز الاعتقادي

نستثمر في هذه الفقرة مفهوم "التحيز" بوصفه آلية تفسيرية للأسباب الخفية الأولى وراء تشجيع تداخل المعارف، والرغبة في توظيف هذه الظاهرة، بوصفها معطى علمياً نسقياً صارماً لا يقبل التعدد أو التحول، لإخضاع كل الظواهر لسلطته وجبروته في كل السياقات التداولية المختلفة عبر العالم. فالتحيز ينطلق من أن كل واقعة أو حركة لها بُعد ثقافي، وتعبّر عن نموذج معرفي، وعن رؤية معرفية؛ والنموذج هو صورة عقلية مجردة ونمط تصوري وتمثيل رمزي للحقيقة.

(59) لاتوش. **تنميط العلم: محاولة في فهم آليات التغريب ومحدودياته**، مرجع سابق، ص45.

(60) فايرابند. "وداعا أيها العقل"، ص104-105.

(61) Heidegger, *Qu'appelle-t-on Penser*, p. 23.

هو نتيجة عملية تجريد؛ أي تفكيك وتركيب؛ إذ يقوم بجمع بعض السمات من الواقع بطريقة اصطفائية؛ فيستبعد بعضها ويبقي على بعضها الآخر، ثم يقوم بترتيبها حسب أهميتها، ويركبها، بل وأحياناً يضخمها بطريقة تجعل العلاقات بينها تشاكل ما تتصوره العلاقات الجوهرية الحقيقية. وتتفاوت درجات الاختزالية والتركيب في النماذج كما تتفاوت درجات العمق.[62]

من هنا نتبين أن تبني العقل الغربي لظاهرة التداخل المعرفي، ليس مبنياً على رغبته في تأسيس نسق علمي صارم تخضع له كل العلوم فقط، ولكن بغاية ضخ تحيزاته في قوالب علمية منيعة، وإكراه الناس جميعاً على تلقيها تحت غطاء النسقية العلمية. وكشفنا لهذه الأسباب الخفية لبروز ظاهرة التداخل المعرفي لا يلغي ما ادعيناه منذ البداية من فعالية البحث التداخلي، وانسجامه مع التوجهات العلمية الجديدة، بل ومع حقيقة العلم أو المعرفة، ولكن رغبنا في الوقوف على الأسباب الحقيقية للظاهرة، لتشجيع البحث التداخلي في مجالنا التداولي على إبداع نظرية تداخل مأصولة غير منقولة وفق فلسفة علمية مبدعة ومتناغمة مع مكونات هذا المجال التداولي. ثم إن إبرازنا لخلفيات نظرية التداخل المعرفي الغربي، باستثمار مفهوم التحيز، لا يعني بالضرورة إنكار التحيز للمعارف الخاصة، ولكن بغرض الدراسة والتدقيق وفق الشروط العلمية العامة، وإلا فلا يوجد مذهب عقدي خالٍ من معارف، وكما لا يوجد بناء علمي متحرر تماماً من المعتقدات، غير أن حضور المعارف في المذاهب العقدية يكون دائماً

---

(62) المسيري، **فقه التحيز**، مرجع سابق، ص17. ولا بدّ من التنبيه على أن درجة التحيز تختلف من ميدان إلى آخر ومن علم إلى آخر. ويعتمد ذلك على مدى ارتباط الميدان أو العلم بالهوية الثقافية والحضارية للجماعة. ولهذا نجد أن التحيز يكون أقوى ما يكون عادة في ميادين العقائد الدينية والتقاليد والعلاقات الإنسانية، وما يعبّر عنها من فنون وآداب وفكر وثقافة. أمّا الميادين التي تكون درجة تعرضها للتحيز متوسطة القوة، فنجدها في التكنولوجيا والتنمية الصناعية. أمّا أقل الميادين تعرضاً للتحيز، فهي العلوم البحتة؛ مثل: الفيزياء، والكيمياء، والرياضيات، والتاريخ الطبيعي، ومع هذا فهي تحوي قدراً من التحيز. انظر:
- الميسري، **فقه التحيز**، مرجع سابق، ص20.

تلميحياً ومبهماً، مثل إبهام المعارف العامية، لأنه لا يتخذ صيغاً دقيقة في شكل قوانين علمية. وبالمقابل يكون حضور المعتقد والثقافة في البناء العلمي خجولاً وباهتاً، لأن قوة الاستدلال في العلم وصرامة بنائه تفرض على المعتقد تكيفاً وإضماراً.[63] كما يذهب طموحنا إلى الرغبة في الوصول إلى إثبات أن التحيزات الغربية الكامنة في المناهج والأدوات والمفاهيم ليست قيماً عالمية كما يدعي أصحابها أو مقلدوهم، وإنما هي ذات خصوصية غربية محدودة.

ليس صعباً -مثلاً- ملاحظة ارتباط العلم في الحضارات الشرقية القديمة بالاحتياجات العملية، ونماذجها المعرفية؛ ذلك أنه لم ينفصل قط عن إطاره المعرفي وبنيته الإدراكية. والحق أن هذا الانفصال يكاد يكون مستحيلاً، لأن العلم أولاً نشاط معرفي؛ فعلى سبيل المثال، ارتبطت معارف الشرقيين الأولية لمواقع الكواكب وحركتها بمعايير ضبط الحياة اليومية، وبالقدر نفسه لم تنفصل عن التأمل النظري في عناية القوى العلوية، لأن الوجدان الشرقي وثيق الصلة بالألوهية. وقد أوضح راشكوفسكي في كتابه "نظرية العلم والشرق"، أن كوزمولوجيا العهد القديم ترجع إلى أساطير ما بين النهرين، ويمكن عن طريق هذا تتبع الصلة بين الميثولوجيا؛ أي الأساطير، التي مثلت إطارهم المعرفي، وعناصر العلم في هذه الحضارات، ليظل العلم في كل حال خير شاهد على حركية العقل البشري وتواصل العلم والثقافة عبر الحضارات.[64]

وإذا كانت ملاحظة هذه الأبعاد المعرفية والثقافية في العلم الشرقي أمراً ميسوراً لغلبة الطابع الروحي الشرقي وبروزه، فإن الأمر يبدو صعباً بالنسبة إلى العلم الغربي؛ لصرامة النسق العلمي الغربي، لطغيان مفاهيم معينة في مجال الاستخدام العلمي، مما يستبعد أي تحيز أو انتماء معرفي ما؛ كالدقة والموضوعية والتجربة والنسقية والصرامة... وغيرها من المفاهيم المضللة عن حقيقة تناول العقل الغربي لظواهر علمية كثيرة، وهو مسكون بمعارفه ومتحيز لثقافته.

---

(63) البعزاتي، بناصر. **مفاصل التفاعل بين المعارف**، المغرب: دار توبقال، ص72.

(64) الخولي، **فلسفة العلم في القرن العشرين**، مرجع سابق، ص37.

وقد ساهمت مدارس نقدية غربية في كشف هذه التحيزات، ونقد ما يسمى بـ"الموضوعية العلمية" و"حياد العقل" في البحث والدراسة؛ فقد أثبت هابرماس أن المذاهب الفلسفية الخمسة المشهورة،[65] كانت تسكن النظرة العلمية الغربية.[66] وتلك المذاهب الفلسفية كانت تصدر عن تصورات لم تستطع الانفكاك عن النفوذ الديني الواسع، وخاصة التراث اليهودي- المسيحي، بل كان الدين يمثل لحظة أمل ونجاة في زمن الانسداد الفلسفي والانغلاق العلمي، الذي يقود إلى العبثية وفقدان السعادة.[67] وعند تشريح التركيبة الثقافية التي ميزت الفلسفة الألمانية مثلاً في القرن العشرين، ومعاينة عناصرها، يلحظ هابرماس -بيقين كبير، وحتى في الميادين التي يعدّها بعضهم مقصورة على الألمعية الألمانية- غلبة التراث اليهودي وتجذره في الأعماق التصورية لهذه الفلسفة.[68] وفي هذا السياق نفسه حكمت الروحية اليهودية علم الاجتماع الألماني منذ عصر لودفيك غومبلوفيتش Ludwind Gumplowicz؛[69] فقد دخل التصوف اليهودي إلى قلب الجامعة الغربية، واندسّ في شرايين العلوم الاجتماعية وتخلى عن الحقائق العقائدية الظاهرة، غير أن هذا التخلي لم يكن إلا مؤقتاً؛ إذ سرعان ما اقتحم هذا التصوف

(65) يقصد ظاهرية هوسرل (Husserl) وهيدغر Heidegger ذات النزوع الأنطولوجي، وفلسفة جاسبر (Jasper) وليت (Litt) وسبرانجر (Spranger) التي تعود إلى ديلتيه (Dilthey)، وهي ذات صبغة وجودية من ناحية، وهيغلية محدثة من ناحية أخرى، وفلسفة شيلر (Scheler) وبلسنير (Plessner)، وإلى حد ما كاسيرر (Casser)، وهي ذات منحى أنثروبولوجي، وفلسفة لوكاش وبلوخ (Bloch) وبنجامين (Benjamin) وكورش (Korsch) وهوركهايمر، وهي ذات منحى اجتماعي نقدي، وتدعو إلى العودة إلى ماركس وهيغل؛ وفلسفة فيتجنشتاين وكارناب (Carnap) وبوبر Popper، وهي ذات نزوع وضعي منطقي.

(66) هابرماس، يورغان. الفلسفة الألمانية والتصوف اليهودي، لبنان: المركز الثقافي العربي، 1995م، ص14.

(67) المرجع السابق، ص46.

(68) المرجع السابق، ص49-50.

(69) المرجع السابق، ص80.

العلوم الغربية من زوايا متعددة، ثم لحم أجزاءها في الداخل، حتى ليبدو عجيباً تلاقي وجودية روزنرويغ وماركسية بلوخ والتصورات الكبالية حول الخلاص وقضايا الألوهية.[70] فالفكر اليهودي إذن، قد حكَّم نظرية المعرفة والفلسفة الوجودية والدعوة الإنسانوية الماركسية.[71] وعليه تمتنت العلاقة بين الأخلاق والفيزياء على أرض المصطلحات الكانطية من خلال مجهودات كارل جويل Karl Joel ودافيد بومغارد David Boumgardt.[72] لقد كانت الإنتاجات العقلية الغربية مرتبطة أشد الارتباط بأنساقها الفلسفية ومرجعياتها الثقافية والدينية في نظرتها للظواهر العلمية المتعددة. وبذلك فأدلة العقل لم تكن حسابية أو تجريبية ولكنها جدلية "ديالیكتيكية" منذ أرسطو.[73]

إن نظرية تداخل المعارف قد تقوت أكثر في النصف الأخير من القرن العشرين للإجابة بشكل أدق عن مشاكل عويصة تهدد مستقبل الإنسان والعالم، كالفقر والحروب والمجاعة، والانفجار السكاني، والاستهلاك المفرط، والتدهور البيئي...، مع تسجيل عجز أي تخصص وحده عن الإجابة عن هذه التحديات والمشكلات المتعددة، لكن نشوء هذه النظرية في المجال التداولي الغربي جعلها مسكونة بهواجس عقله وطموحاته ونزوعه إلى ضبط الإنسان والعالم بعلمه الخاص المستند إلى رؤاه العقدية والفلسفية، مما يقلل من أهمية هذه النظرية في مجالنا الخاص، ويؤكد ضرورة التفكير في نظرية تداخل تستجيب لطموحنا العلمي وتلامس أفقنا المعرفي والتداولي.

---

(70) المرجع السابق، ص6.

(71) المرجع السابق، ص7-8.

(72) المرجع السابق، ص81.

(73) *Rhétorique et Philosophie*, p. 139 et 134.

ب - فكرانية قصة العلم

نستثمر في هذه الفقرة مصطلح "الفكرانية" الذي أبدعه طه عبد الرحمن،[74] في سياقه الدال على "الأيديولوجيا". ونريد أن نثبت من خلال هذا المفهوم التفسيري عملية السطو التي تعرضت لها قصة العلم، وارتباطها الخفي بنظرية تداخل المعارف، ومعاودة الكرة للربط بين العلوم من أجل التحكم في الظواهر والإنسان والعالم.

فقد انتشرت تصورات نمطية لتطور الغرب ولقصة العالم، تحولت إلى مسلمات وعقائد تاريخية لا يرقى إليها الشك؛ فإذا سلمنا بأن الغرب قد تشكل بعد سلسلة من التحولات المتتالية، عرف فيها مداً وجزراً مع النهضة الكارولانجية والحروب الصليبية، ثم المد مع الحملة الاستعمارية الكبيرة الأولى التي قادها الغزاة Les conquistadors في القرن السادس عشر، ثم عرف مداً جديداً في القرن السابع عشر؛ إذ تطور إلى شكل من الاستعمار الفكري مع الاكتشافات العلمية الكبرى، ثم إنجازات القرن الثامن عشر، ثم مرحلة التخلص من الاستعمار، وأخيراً السيطرة بالعلم والتقنية، حتى انتهينا إلى هذه الظاهرة التي أفرزت لنا كوكباً تربطه شبكة من الاتصالات المكثفة تعمل دون انقطاع.[75]

إذا سلمنا بهذه المعطيات التاريخية المتسلسلة والنمطية، فليس يسيراً التسليم بتطور الغرب في علاقته بالعلم؛ فالنظرات (الفكرانية) تريد ترسيخ مقولة: إن العلم غربي، أو بالأحرى الإبداع هو خاصية عقلية للغرب، فهو المركز وغيره أطراف وهوامش. فالعلم بدأ مع الإغريق كما بدأت الفلسفة مع طاليس، وبدأت الرياضة مع فيثاغورس، والميتولوجيا مع هوميروس، والمسرح مع يوربيديس واسخيلوس، وبدأت الديموقراطية في أثينا، إلخ، فيبدو، إذن، أن الغرب هو الفاعل الوحيد

(74) عبد الرحمن، طه. **تجديد المنهج في تقويم التراث**، المغرب: المركز الثقافي العربي، ط2، د.ت، ص24-25.

(75) لاتوش. **تنميط العالم، محاولة في فهم آليات التغريب ومحدودياته**، مرجع سابق، ص43.

والمحرك لكل فعل حضاري، والمالك الوحيد لكل كسب حضاري، وصاحب الحق الوحيد في تدبير شؤون الإنسان والكون وفق تصوراته "العلمية" وطموحاته ومصالحه. ولما كانت العلوم هي نبض القوة في الحضارة اليوم، فإن الغرب هو صاحب الحق في التحكم فيها وصياغة العلاقات بين العلوم والمعارف؛ لإحكام سيطرته واستكمال إخراج هذه الملحمة الزائفة، التي تؤكد أن نقطة البدء العلمي كانت مع الإغريق.[76] وعليه فنظرية التداخل المعرفي ليست إلا إفرازاً منظوراً للإبستمولوجيا الإغريقية التي تبشر بتوجهات علمية جديدة،[77] تريد تجاوز الانحراف العلمي الذي حصل في الغرب في التوجه نحو الطبيعة.[78] وهكذا تبدو قصة العلم في ارتباطه بظاهرة التداخل بين المعارف قصة غربية خالصة، طغت فيها الفكرانية والنزوع إلى احتكار العلم، وإلغاء جهود الإنسان غير الغربي. وسنجد لوسيان ليفي بريل L. Levy Bruhl (1875–1939) أبرز ممثلي الفلسفة الأنثروبولوجية التطورية، في كتابه "العقلية البدائية"، يقطع كل صلة بين الأصول البدائية للإنسان وأشكال التحضر الحديثة وعلى رأسها العلم.[79]

لقد انعكس، إذن، التشويه الفكراني على قصة العلم، وامتد هذا التشويه إلى جل الظواهر العلمية المدروسة، مما لا بدّ من الانتباه له في مثل دراستنا لظاهرة التداخل المعرفي، وهو انتباه واع ومتحرك صوب الحرية والتحقق والإبداع، وإن كان الأمر يبدو صعباً اليوم، فإنه يبقى سيرورة ممتدة في الزمن إلى الأمام.[80]

إن بروز نظرية تداخل المعارف كان في أبعاده الخفية، بنظرنا، برغبة الاستحواذ على قصة العلم ومساره عبر التاريخ، من خلال إرجاعها إلى منبع واحد ووحيد هو الإغريق، وإلغاء كل الإمكانات العلمية والعقلية عند الأمم الأخرى؛ فدعاوى

(76) الخولي، **فلسفة العلم في القرن العشرين**، مرجع سابق، ص38.

(77) Resweber, *La Méthode Interdisciplinaire*, p. 27.

(78) Ibid., p. 24.

(79) المرجع السابق، ص27.

(80) سعيد، إدوارد. "انتقال النظريات"، **مجلة الكرمل**، بيروت، ع9، 1983م، ص20.

التداخل بوصفه مطلباً إنسانياً وواقعياً، ودعوى توحيد العلم، ليست إلا أشجاراً أمامية تخفي غابات واسعة وكثيفة العناصر، هي الرغبة في تسييج العلم الإنساني بالتحيزات الاعتقادية والفلسفية الغربية، وترسيخ السطو على قصة العلم، وفي المحصلة توظيف العلم لأغراض غير علمية، وإكراه الأمم الأخرى على الخضوع رغبة أو رهبة.

رابعاً: بين التخصص وتداخل المعارف

1 - التداخل المثمر

إن البحث في تداخل المعارف هو بحث إبستمولوجي يلامس قضية وحدة المعرفة الإنسانية. وتوصلنا إلى أن التخصص يحجب عن الباحث والعالم روابط القربى والتعاون والمصير الواحد لفروع المعرفة البشرية؛ ففي التخصص انعزال وتقوقع الباحثين والعلماء، وفي مدّ جسور التلاقح والتداخل بين تخصصاتهم إغناء لعملية الابتكار والإبداع في دنيا المعرفة والعلوم. ولن يدفعنا هذا إلى التقليل من شأن التكوين المعرفي الأحادي (Unidisciplinaire)؛ فهو أمر ضروري، لامتلاك قاعدة معرفية أساسية، ولكنه يجب أن يكون محفزاً الباحث إلى توسيع آفاقه المعرفية وانفتاحه على الرصيد المعرفي للتخصصات المجاورة مباشرة.

فالتداخل المثمر، بنظرنا، هو الذي يبتدئ من إحكام تخصص معين، ثم الإبحار خارجه للإبداع والابتكار؛ فقد أثبتت الدراسات العلمية في مجال تاريخ العلوم وفلسفتها أن الابتكارات العلمية المهمة هي حصيلة مجهود باحثين وعلماء يعملون خارج تخصصاتهم، بينما الابتكارات العادية غير المؤثرة هي حصيلة مجهود باحثين داخل تخصصاتهم. ويمكن تلخيص قيمة التداخل المثمر بمقولة الفيلسوف كارل بوبر: "يجب علينا أن نقر بأن النقاش بين شخصين ذوي معرفة مختلفة ليس أمراً سهلاً؛ إذ إن التصادم بين ثقافتين مختلفتين هو الذي أدى إلى

ثورات فكرية كبيرة."[81] فتداخل المعارف ليس بالضرورة محواً للتخصصات، ولكنه مجال معرفي خصب يسهل عملية التواصل المريح بين التخصصات في إطار ضوابط معرفية ومنهجية جديدة.[82]

وقد حدد هيدغر، في مقاله القصير عن الحاجة إلى التأمل في الحركية الداخلية للعلم الحديث، الحالة التي يحتاج فيها العلم للتخصصية Disciplinarité، والحالة التي يحتاج فيها لتداخل المعارف interdisciplinarité.[83] كما أثبتت جولي ثومبسون كلين Julie Thompson Klein في بحثها التأسيسي: "تداخل المعارف: التاريخ والنظرية والممارسة" أن الحاجة لتداخل المعارف المثمر يقتضي رصد طبيعة الظواهر العلمية المدروسة، والانتباه إلى الإمكانات المعرفية والمنهجية المساعدة على التداخل بين المعارف. وقد ميزت بين عدد من أنواع العلاقات الحدودية Trafic Frontières بين التخصصات؛ من تخصصات متشابكة Multidisciplinaire، وتخصصات معتمدة على أخرى Crossdisciplinaire، وتخصصات عابرة إلى أخرى Transdisciplinaire. وعليه، بدأ البحث العلمي يجمع بين المقاربة التحليلية والتخصصية التي تركز على بعض المشكلات العلمية المستورة، وإدراك التفاعلات والتداخلات بين الظواهر ومعرفتها، وكذا معرفة فجوات المعرفة، وتفهمها من خلال آليات البحث التداخلي، الذي بدأ يتوسع أكثر فأكثر.

2 – التخصص المثمر مدخل للتداخل

بالرغم من أن التخصص قد نشأ في القديم وفي تاريخ المعرفة الإنسانية على أنقاض التداخل والارتباط بين المعارف، إلا أنه بنظرنا قد يكون عنصراً داعماً لتداخل المعارف، وآلية فعالة لتعميق البحث التداخلي. ولكن التخصص الذي

(81) Dogan et Pahre. *L'innovation Dans Les Sciences Sociales*, p. 206.

(82) "Qu'est-ce que l'interdisciplinarité?", Sinaceur, p. 13.

(83) "Questioning Interdisciplinarity".

نقصده هو الذي أسميناه بـ"التخصص المثمر"، الذي يأتي نتيجة طبيعية لتطور المعرفة والعلم، وليس التخصص الإداري الذي يصبح المساس به مساساً في العمق بالبنية الاجتماعية لمؤسسة أو جامعة أو معهد! ومن ثم نجد المقاومات العنيفة ضد تداخل المعارف والدفاع عن "حرمة التخصص"، وليس هذا الدفاع في حقيقته إلا دفاعاً عن المهنة؛ لأن التخصصات بحسب هذه المعطيات لم تعد فقط وسائل لتجزيء المعارف إلى عناصر، بل هي القاعدة التي تنتظم الجامعة وفقها، وتتوزع إلى مناطق نفوذ مستقلة، يصبح الاقتراب منها انتهاكاً لحمى وحرمات أصحابها.[84] إن التخصص المثمر هو الذي لا يعدّ التداخل تشكيكاً في حقيقة العلوم،[85] بقدر ما هو مجال للتنسيق والتداخل وإغناء البحث وتحقيق الإبداع. والبحث التداخلي يتطلب متخصصين قادرين على الخروج من قبضة عمى التخصص، ويمتلكون ما يكفي من الحماس وحب الاستطلاع والذكاء، لخوض هذه التجربة التداخلية، دون هواجس أو خوف أو عقدة "النجومية"[86] العلمية، أو احتكار "السلطة العلمية".[87] ومن هذا المنطلق يصبح التخصص مدخلاً طبيعياً للتداخل.

3 - التخصص والتداخل وعلاقات التفاعل

هناك من الدارسين من يذهب إلى أن تداخل المعارف اليوم قد يكون هو علم "الغد؛"[88] أي أنه سيتحول إلى تخصص مستقل بمفاهيمه ومناهجه ونظرياته، وله حدوده المعروفة. وهناك من يشكك في هذه النتيجة، وينكر وجود نظرية للتداخل

(84) Apostel, et all. "L'interdisciplinarité: Problèmes d'enseignement Dans les Universités", p. 19.

(85) "Interdisciplinarité: Quand les disciplines se croisent." *US Magasine*, N° 542, Mars 2001, p. 19.

(86) Dogan et Pahre. *L'innovation Dans Les Sciences Sociales*, p. 41.

(87) Resweber, *La Méthode Interdisciplinaire*, p. 19-20.

(88) Apostel, et all. "L'interdisciplinarité: Problèmes d'enseignement Dans les Universités", p. 19.

كفيلة بوصفها تخصصاً قائماً بذاته.[89] مع أن التعاون أو التداخل بين تخصصين أو أكثر يخلص إلى نتيجة يمتلكها إما التخصص المستهلك أو التخصص المنتج أو تخصص جديد.[90] ولكن يبقى التفاعل قائماً بين التخصص والتداخل، وإن كان هذا الأخير أكثر إبداعاً وعطاء، فالتخصص يضن بمجهوده داخل حدوده، ولا يعطي الآخرين إلا القليل. وتفاعل التخصصات فيما بينها لا يؤدي بالضرورة إلى تحقيق تداخل مثمر ومبدع، وإن كان يحقق هجانة بين معارف سرعان ما تتطور هذه الهجانة إما إلى حقل معرفي متداخل، أو تعود التخصصات إلى أصلها عبر عمليات انشطار معرفي. فبالهجانة مثلاً بين المعارف يمكن أن تنتفع ميادين كثيرة في اللسانيات بالبيولوجيا، كما يمكن أن تدرس المكونات الصوتية للغة بالرجوع إلى الإكراهات البيولوجية للعقل.[91] وتبقى مرحلة الهجانة بين المعارف لحظة وسطى بين تصورين متضاربين؛ واحد يدعو إلى وحدة العلوم في إطار تداخلي نسقي صارم، وآخر يريد الاقتصار على تحقيق التعايش السلمي بين العلوم.[92]

إن خروج المتخصص في اتجاه هامش حقله، لا يفقده الاتصال بنواة تخصصه، بل يظل الرباط موصولاً. كما أن ولوج المجال التداخلي لا يعدّ بالضرورة ضياعاً في نهر دون مجرى، بل التخصصات سرعان ما تنتظم داخل المجال التداولي، وتنسج علاقات جديدة، ويتحطم مفهوم الحقيقة الواحدة الخاصة بكل تخصص على حدة. ويصبح البحث مشتركاً، وآليات العمل بينها تعاون وتلاقح وتداخل، وتقل نزوعات الاحتكار والأنانية، وينشط البحث الجماعي المثمر، سواء على الحدود، أو داخل حقل هجين، أو في المجال التداخلي المنظم.

قد يكون العمل التداخلي صعباً؛ لتنوع الأطر والمبادرات والمفاهيم والمناهج والنظريات، ولكن تعميق البحث والنظر في إبستمولوجيا البحث التداخلي، كفيلان

(89) Qu'est-ce que l'interdisciplinarité?", Sinaceur, p. 12.

(90) Ibid., p. 13.

(91) Dogan et Pahre. *L'innovation Dans Les Sciences Sociales*, p. 261.

(92) Resweber, *La Méthode Interdisciplinaire*, p. 35-36.

بضبط العلاقات التداخلية الممكنة بين المعارف داخل الحقل التداخلي، والحفاظ على درجات التفاعل الحي والمثمر بين التخصص والتداخل.

خامساً: الكثافة الاصطلاحية للتداخل

1 - أسئلة البحث التداخلي

ما زال مسار التداخل بين المعارف غير خاضع للدراسة الوافية. وما زالت كثير من الأسئلة المتعلقة به معلقة، وحتى الدراسات القليلة التي وقعت عليها أيدينا لا تفي بالغرض المطلوب، وتتناقض هذه الندرة في الدراسات حول التداخل مع كثرة المفكرين الذين سلكوا مسلكه، والذين تحمسوا له وبشروا به في إطار التوجهات العلمية الجديدة.[93] ويُرجِع بعض الدارسين قلة الدراسات الإبستمولوجية لظاهرة التداخل بين المعارف إلى فقدان الباحثين لنموذج منهجي (ميتودولوجي) للتداخل، يمكن الاعتماد عليه أو يقاس عليه أثناء البحث.[94]

وإذا كان الجدل حول جدوى المنهج التداخلي في البحث العلمي الحديث يكاد يكون محسوماً، فإنه يتعذر تقديم تعريف اصطلاحي محدد للتداخل من غير حصر الأسئلة الكبرى، التي تشكل الإطار المنهجي والوظيفي للتداخل. فبالرغم من أن المجهودات في مجال نظرية تداخل المعارف، سواء كانت بحوثاً تربوية تعليمية، أو برامج بحث، أو آليات تحليلية، أو خطابات متراكمة، أو مفاهيم ومناهج ونظريات متداخلة، أحدثت ممرات حقيقية بين حدود التخصصات والعلوم، فإنها ما زالت محدودة. كما أن البحوث حول التداخل لم تتجاوز حدود ملاحظة امتزاج تخصص علمي بآخر أو ترابطهما في حدود ضيقة جداً، أو اعتبار التداخل مجرد مجال في العلوم الإنسانية يفتتح لنفسه نافذة في مجال آخر داخل العلوم الإنسانية نفسها. وفي كل الحالات تكون العملية وصفية ظاهرية أكثر مما هي إبراز لحقيقة

(93) Dogan et Pahre. *L'innovation Dans Les Sciences Sociales*, p. 15.

(94) Resweber, *La Méthode Interdisciplinaire*, Introduction.

العلاقة التداخلية بين المعارف. وبقيت الأسئلة الرئيسة في حاجة إلى دراسة وبحث؛ فما المقصود بتداخل المعارف؟ وكيف يحصل؟ وما هي مظاهره وأنماطه وإشكالاته؟ وما هي شروطه المعرفية والإبستمولوجية والاجتماعية والاقتصادية؟ وإذا كان قد تحقق التداخل بين المعارف قديماً، فكيف يتحقق حالياً؟ وكيف يتحقق بين العلوم الإنسانية أو العلوم الطبيعية فيما بينها؟ وكيف يتم بين هذين النمطين من العلوم؟ وما هي الإشكالات الممكنة للتداخل؟ وهل يمكن حصر الأنماط الموجودة منه؟ وما الذي يستعيره علم من علم آخر؛ أيستعير منه لغته الرمزية أم جهازه التقني أم الإجرائي؟ أم أنه يتبنى محتواه النظري أو رؤيته المنهجية؟ وهل يكون التداخل جزئياً أو كلياً؟ وما حدود الاختلاف أو الترادف بين مفاهيم التداخل والتكامل والتفاعل والاقتراض والتلاقح ووحدة العلوم..؟ وهل يتمثل التداخل في اشتراك العلوم في مجموعة من المفاهيم والمعارف المشتركة؟ أو أنه يتمثل في دراستها للظواهر والمعطيات نفسها؟[95] ومتى يكون التداخل ضرورياً؟ وكيف يمكن إدراكه وتحقيقه، ولا سيّما عندما يجد الباحث نفسه محاطاً بحدود مستودع الأسلحة المنهجي والتصوري لكل تخصص على حدة؟

لقد حاولنا سابقاً تحديد معنى التخصص وظروف تشكله، وبداية تداخل التخصصات، وانهيار الحدود بين العلوم. وأشرنا إلى القيمة الإبداعية لعملية التداخل المعرفي بين التخصصات، وميزنا بين التداخلات الداخلية والتخصصات والتداخلات المزدوجة، لكن المعطيات التي توافرت لنا لم تسعفنا إلى هذه اللحظة في استكمال بناء تصوري متكامل لنظرية تداخل المعارف، مما يجعلنا مضطرين إلى البحث المستمر عن التحديد الهارب لمصطلح التداخل، بعدما لم تفدنا كثيراً المعاني اللغوية إلا لإضاءة جوانب جزئية وضيقة جداً في الظاهرة. ولعل التماس التحديد الاصطلاحي المضبوط سيكون مدخلاً للمقاربة الأولية لأسئلة التداخل المعرفي، التي لن يدعي بحثنا طاقة الإجابة الحاسمة عنها.

---

(95) كان جزء كبير من هذه الأسئلة يشكّل الهم الوظيفي والاستشكالي للجمعية المغربية لتكامل العلوم التي تأسست بالدار البيضاء، بتاريخ 11 ماي 1996م.

2 – الاتساع الاصطلاحي للتداخل

ذكرنا في فقرة سابقة أن معنى "التداخل" يلتبس بمعاني كثير من المفاهيم القريبة منه. وأوضحنا الأسباب التي جعلتنا نرجح مصطلح "التداخل" دون غيره. وبالرغم من تناولنا لظاهرة تداخل المعارف من جوانب كثيرة، فإنّا لم نستطع الخروج بتعريف اصطلاحي دقيق لتداخل المعارف، بل صادفتنا تعريفات كثيرة، وإن كانت تتكامل من حيث النظرة العامة للظاهرة، فهي تختلف قليلاً أو كثيراً، من حيث الزاوية الخاصة التي تعرف منها ظاهرة تداخل المعارف.

فتداخل المعارف من حيث العلاقة والوظيفة معاً، هو جمع عناصر متعددة ومتمايزة بين تخصصين أو أكثر، في البحث أو التعليم لتحقيق أداء معرفي جديد لا يمكن تحصيله بغيره.[96] ومن حيث العلاقة فحسب، فتداخل المعارف، بنظر بعض الدارسين، هو نظرية في اختراق العلوم وخلق علم تداخلي.[97] أما من ناحية فلسفة العلم فالتداخل المعرفي هو إعادة النظر في العلم نفسه،[98] أما من الناحية الإبستمولوجية فالتداخل المعرفي هو قانون العلوم والإطار الموحد للمناهج العلمية،[99] أو هو نوع من مساءلة المعرفة في جوهرها، واختبار العلوم من خلال موضوع واحد.[100] أما من حيث الهدف فقد عرف جان بياجي Jean Piaget تداخل المعارف بأنه تيار فكري يهدف إلى محو الحدود بين العلوم، وإعادة تنظيم ميادين المعرفة، من خلال التركيب بين التخصصات،[101] كما يعدّ التداخل من هذه الوجهة، أداة فعالة

(96) "Interdisciplinarity and the Study of Mind".

(97) "Résoudre l'empilement des connaissances.", US Magasine, p. 20.

(98) Apostel, et all. "L'interdisciplinarité: Problèmes d'enseignement Dans les Universités", p. 21.

(99) Resweber, *La Méthode Interdisciplinaire*, p. 9.

(100) Ibid., p.44.

(101) Dogan et Pahre. *L'innovation Dans Les Sciences Sociales*, p. 93.

لإحداث تغييرات تربوية وجوهرية في مسار التربية والتعليم.[102]

وقد تعرضت هذه التعريفات المختلفة لانتقادات حادة؛ لأنها تختزل التداخل المعرفي في نتيجة غير صحيحة، وهي أنه علم يستعمل العلوم الثانوية ويعتمد عليها،[103] أو هو إطار تكون وحده في الجيوب الفاصلة بين النظريات والتخصصات المختلفة.[104]

إن تعدد المقاربات الاصطلاحية لظاهرة تداخل المعارف يؤكد ما ادعيناه من اتساع هذا المصطلح واستعصائه على الضبط والمحاصرة. ولكن التعريفات جميعها لا تخرج عن اعتبار تداخل المعارف تبادلاً أو حواراً بين المعارف والعلوم؛ إنْ على مستوى التحليل أو المنهج، أو المفاهيم أو النظريات، بين علمين فأكثر، مما يحقق الثراء والإبداع، عبر المقاربة الشمولية والمتكاملة للظواهر المعرفية، المتداخلة العناصر والمكونات. فدراسة ظاهرة سلوكية مثلاً، لا بدّ أن يعتمد فيها علم السلوك (Ethologie) على الجمع بين دراسة سلوك الحيوان وسلوك الطفل، وهو عمل ينجزه علماء بيولوجيا (Biologistes)، وأطباء (Des médecins)، وعلماء نفس (Des psychologues)، وفلاسفة (Des philosophes). وهذا التعاون بين مجالات مختلفة ومتعددة، وكذلك كفاءات متنوعة؛ فيها متخصصون ومفاهيم ومناهج ونظريات، لا يمكن أن "ينتظم" ويتناغم إلا داخل إطار فيه مقومات استيعاب هذا التعدد، وهو الإطار التداخلي. ورصد العلاقات وأشكال التعاون بين هذه العناصر المختلفة لن يتم إلا بوجود إطار نظري؛ وهو نظرية تداخل المعارف التي نستطيع بوساطتها ضبط مستوى التداخل والتفاعل بين العناصر المختلفة، وشروط اشتغال الباحث التداخلي الذي يطل على مجموعة من التخصصات في وقت واحد، بالرغم من عدم توفره على معرفة متعمقة بكل تخصص.

---

(102) Heidegger, "L'interdisciplinarité en perspective", p. 21.

(103) "Qu'est-ce que l'interdisciplinarité?", Sinaceur, p. 13.

(104) Ibid., p. 12.

3 – غاية البحث التداخلي ومجاله

أثبتنا سلفاً أن الأصل في المعارف أن تتداخل، وليس أن تنفصل وتتباعد. ثم ذكرنا أن كل نتاج معرفي سرعان ما يجد له تطبيقات وتجليات في علوم أخرى، سواء كانت مجاورة أو بعيدة. وعليه يكون البحث التداخلي بحثاً متسعاً، ويمس كل المجالات المعرفية المترامية؛[105] فهو بحث في العلوم والأفكار، حول الأدوات المستعملة، وحدود الاستعمال، وكشف مستوى التداخل في العلاقات الإبستمولوجية بين المعارف والعلوم، والقيم والأخلاق والأنساق والمفاهيم والمناهج.[106]

إلا أن مجهودنا في هذا البحث لن يدعي قدرة الإبحار والمغامرة في محيط التداخل الواسع، ولكن رسمنا له غاية محددة هي التعريف الأولي بالبحث التداخلي، في أفق تركيب عناصر نظرية تداخلية متناغمة في مجهود لاحق، هذا التعريف الذي حاولنا جمع عناصره من داخل المجال المعرفي الغربي، الذي كان سباقاً إلى طرق الموضوع بشكل واعٍ ومنهجي مقصود. فبعد التعريف سيكون مجال الاشتغال هو التحقق النموذجي من أشكال التداخل بين علوم عدة؛ تمهيداً لولوج فضاء العلوم المعرفية الإسلامية التي كانت تستبطن وعياً تداخلياً كامناً.

سادساً: الضرورة المعرفية والإنسانية لتداخل المعارف

1 – تداخل المعارف وسيلة للخروج من ضيق أحادية العلم

لقد نصَّب العلم بمفهومه الأحادي، منذ مدة، نفسه المفسر لجميع ظواهر الكون، حتى أصبح "رجل العلم المتخصص"، بعبارة شبنغلر، أكثر الناس تمثيلاً لحضارة اليوم. وإزاء هذا الوضع يحس كثير من مفكري الغرب، كما نحس نحن، بأن لنا جملة من المعارف الفلسفية والإيمانية والشاعرية التي تقدم مفاهيم

(105) Dogan et Pahre. *L'innovation Dans Les Sciences Sociales*, p. 11.

(106) Resweber, *La Méthode Interdisciplinaire*, p. 171.

تفسيرية، أكثر غنى عن الكون والحياة، لكنها تتعرض للتجاهل تحت ذريعة: الذاتية، واللاعلمية، وغيرهما.

ونحتاج اليوم إلى نظرية في تداخل المعارف لتجاوز هذا الوضع العلمي الرهيب، وإزالة الحدود التي اصطنعتها الإبستمولوجية الغربية السائدة بين مسالك المعرفة المختلفة. وإنجاز هذا العمل يقتضي الالتحام بدعاوى الأصوات المتيقظة في الغرب، لرصد هذه الظواهر التي تمس جوهر العلم، ثم التعاون على وضع نقاط ارتكاز بحث تداخلي واعد، يؤسس لضوابط ونواظم جديدة للمعرفة الإنسانية، تعيد الاعتبار لقيم التفكير والتأمل والتدبر، أو بعبارة أدق للحكمة على حساب المادة.

كما نحتاج لنظرية في التداخل، لتحقيق مزيد من الإبداع النافع وتوسيع دائرة البحث؛ لأن التداخل والإبداع أمران متلازمان كما أثبتت كثير من الدراسات،[107] فالأعمال الأكثر إبداعاً تكون أكثر تأثراً بالعلوم المختلفة؛[108] لأن تطور الأفكار هو بمثابة تأليف أو تركيب متتابع ومتناغم لعناصر المذاهب السابقة، غير أن كل تأليف أو تركيب لا بدّ أن يأتي بأفكار جديدة؛ لأن نقل فكرة من سياق إلى آخر فحسب، من غير تحقيق شروط التداخل الحقيقي كلها، لا يؤدي إلى إبداع في الأفكار والمفاهيم، لذا نجد المذاهب الفلسفية والرؤى العقدية متفاعلة ومتداخلة، يقتبس بعضها من الآخر، كما أن الاقتباس لا يكون دائماً واعياً، ومعترفاً به.[109] ولكن البحث التداخلي هو الذي يقوم بفحص هذه التأثيرات وتصنيفها، وتبيُّن مستوى الإبداع أو التقليد فيها. وممارسة البحث في مجال تداخلي يزود الباحث بشحنات فكرية وتربوية للانعتاق من سلطة احتكار الحقيقة في التخصص،

(107) Dogan et Pahre. *L'innovation Dans Les Sciences Sociales*, p. 240; et Heidegger, "L'interdisciplinarité en perspective".

(108) Dogan et Pahre. *L'innovation Dans Les Sciences Sociales*, p. 62.

(109) البعزاتي. **مفاصل التفاعل بين المعارف**، مرجع سابق، ص26.

والنزوع نحو الاستقلالية عبر التحفيز والبحث المتواصل.[110] على طول حدود التخصصات، التي تشغل حقولاً هجينة لتتحول إلى مجالات علمية متداخلة. ثم إن البحث التداخلي يعدّ وسيلة أساسية لبث روح الإبداع في النشء والباحثين والمفكرين؛ لأنه يربي ملكة القيام بما يسميه إدغار موران Edgar Morin بعمليات "إعادة الربط."[111] وهي عمليات ذهنية معقدة لن ينجزها إلا عقل مبدع فعال.

إن التجديد والإبداع في العلم ليس بالضرورة أن يكون أمراً جديداً، بل هو إغناء للقديم، ونسج لعلاقات علمية جدية، من خلال تعميق العلاقات والتبادلات بين العلوم والمعارف في إطار تداخلي حيوي.

2 – تداخل المعارف وسيلة لتحقيق إنسانية العلم

إن موضوع تداخل المعارف يجعلنا في قلب الثقافة العلمية الحديثة، ويساعدنا على إخصاب المعرفة، وتنويع وحدات التحليل للظواهر العلمية والإنسانية المعقدة، وتجاوز الرؤى التحليلية الأحادية؛ لأنه وبوساطة تداخل المعارف، تتجلى التداخلات بين التخصصات المتنوعة، فتصبح ضرورية، وينتج عنها في الأخير مجال تداخلي جديد تلتحم فيه الضوابط العلمية بالمطالب الإنسانية، وهذا ما يمكن ملاحظته بيسر في مجموعة من الحقول العلمية المتداخلة الجديدة، مثل علم دراسة الظواهر والمشاكل المتعلقة بشيخوخة المجتمع (Gérontologie sociale)، أو علم النفس الجماعي (La psychologie communautaire)، أو علم النفس الاجتماعي (La psychosociologie)؛ فلم يعد العلم أمراً منفصلاً عن الثقافة والحياة العامة، بل أصبح جزءاً من الثقافة. وأصبح متيسراً، من خلال البحث التداخلي، الربط بين العلم من جهة، بما هو بحث في الأسباب واكتشاف للوسائل، والثقافة التي تفكر في الغايات من جهة أخرى. وأصبح العلم من خلال المقاربة التداخلية عنصراً مساهماً في بناء

(110) "Qu'est-ce que l'interdisciplinarité?", Sinaceur, p. 22.

(111) "Qui a peur de l'interdisciplinarité?", p. 22.

إنسانية الإنسان بدلاً من تدميرها. فالبحث التداخلي يستجيب لكثير من النداءات التي أطلقها كثير من العلماء والجمعيات العلمية بشأن إعادة الاعتبار لـ"أخلاقية العلم" (Ethique de la science) أمام صدمة "الثورات العلمية" وصرامتها. وبذلك تنقلب المعادلة بين العلم والإنسان، إلى المستوى الذي يصبح فيه الإنسان هو الذي يوظف العلم وليس العكس. وهذا ما عبَّر عنه تقرير رفعه علماء بيولوجيون إلى رئيس الجمهورية الفرنسية في يوم ما، بعدما كان قد طلب منهم التفكير في دور علوم الأحياء في المجتمع؛ إذ أثبت التقويم أنه لا يمكن أن نُكَوِّن فكرة عن الإنسان انطلاقاً من علوم الأحياء، بل على العكس من ذلك نستطيع أن نوظف علم الأحياء من خلال تصورنا وفكرتنا عن الإنسان؛[112] أي إن العلم لم يعد محصناً داخل أنساقه الصارمة، تحت دعاوى التخصص، أو احتراماً للحدود الفاصلة بين العلوم، بل أصبح البحث العلمي، من خلال المقاربة التداخلية بحثاً إنسانياً؛ أي في خدمة الإنسان، ومن أجل رسالته العمرانية في الكون.

سابعاً: أشكال التداخل بين المعارف

بتطور البحث التداخلي نشطت هجرة العلوم، وحلَّ التعايش بين العلوم محل الانقسام والتباعد، كما تقوَّت حركات التبادل بين المعارف على الحدود، فظهرت حقول معرفية جديدة، كانت جامدة لسنوات طويلة. وزاد في هذا النشاط التداخلي تقدم وسائل التقنية وتطورها. وأصبحت الحياة العقلية والفكرية والعلمية متصلة ومستمرة، تتبادل فيها المعارف التأثير والتأثر، وغدت العلوم كلها متعاونة مرتبطة بعضها ببعض.[113] وكانت روح العلم الحديث دافقة متوثبة، وتوثَّقت العلاقة بين العلم والفلسفة عبر حوار عميق، وعادت الفلسفة من جديد لتكون الأم الرؤوم التي تطوي جناحيها على جل العلوم. وبالرغم من هذا، بقيت الوحدة بين الفلسفة والعلم موضع إشكال؛ منذ عجزت عن تطوير نظرتها إلى

(112) Gros, F., F. Jacob et P. Royer. *Science de la vie et Société*, Éd., Paris: Seuil, 1979, p. 288.

(113) خليفة، حاجي. **كشف الظنون**، بيروت: دار الكتب العلمية، 2991م، ج1، المقدمة، ص64.

الكون عبر وسائلها الخاصّة، مما جعلها في بعض اللحظات ترتهن، وهي العلم التأسيسي لنتائج بعض العلوم، لا سيّما علوم الطبيعة، والفيزياء.[114] إضافة إلى الاختلاف الحاصل بينهما من حيث تحديد بعض المشاكل، ومناهج المعالجة المختارة.

إن تفاعل المعارف والأفكار والقيم لم يعرف انقطاعاً في أية لحظة من التاريخ، غير أن مدى التفاعل يتأثر بجو التواصل والحوار في داخل مجتمع ما. فقد فرض التداخل نفسه في جل الميادين العلمية، وفي مؤسسات البحث والدراسة؛ وأصبح التعاون والتنسيق ميزة بارزة لمعارف اليوم، وأصبح الباحثون من أهل التداخل كالنَّحل الباحث عن الأزهار في حقول عديدة. وفي أثناء التنقل والبحث يصحب أولئك الباحثون معهم مفاهيم ومناهج ونظريات، يعيدون استثمارها داخل الحقول المعرفية التي يلجونها. وعليه، سنحاول تبين أشكال التداخل بين المعارف من خلال تتبع انتقال بعض المفاهيم والمناهج والنظريات، والبحث عما يحصل لها من تحول أو تعديل داخل الحقل المتداخل الجديد، وكيف يتم تداولها، ومدى مساهمتها في الإبداع.

1 – التداخل على مستوى المفاهيم

لا توصل نظرية تداخل المعارف إلى معرفة معتبرة، إلا إذا كان التخصص المستعمل يأخذ ما يحتاجه من خلال إدراك المشاكل والمعاني الحقيقية للألفاظ والمفاهيم المنتمية للتخصص المستعمل. وهذا ما يعني أن تعاون تخصصين وتطبيق نظرية تداخل المعارف يتطلب، على الأقل، ازدواجية الكفاءة في التخصصين المستعمِل والمستعمَل، وكفاءة تطبيق التداخل بينهما،[115] وكذلك إدراك المستويات التي يتم فيها هذا التداخل، وأدق هذه المستويات مستوى المفاهيم والمصطلحات، ويمكن رصد المفهوم من خلال علم المصطلح الذي

(114) هابرماس. **الفلسفة الألمانية والتصوف اليهودي**، مرجع سابق، ص33.

(115) "Qu'est-ce que l'interdisciplinarité?", Sinaceur, p. 12-13.

هو علم مشترك بين اللسانيات والمنطق، وعلم الوجود، وعلم المعرفة، والتوثيق وحقول التخصص العلمي المتعددة، بل ينعته الباحثون بـ"علم العلوم."[116] فالمفاهيم والمصطلحات تشكل رابطاً بين المعارف.

وكان استقراء العلوم عند القدماء ودرجة الإبداع فيها مرتبطاً بتنظيم المفاهيم والمصطلحات وضبطها. ولم تمنع نزعة المشاركة التي صبغت التحصيل والتصنيف قديماً العلماء من أن يتمثلوا المفاهيم الاصطلاحية عبر حقولها العلمية المختلفة،[117] بل كان هذا التمثل أكبر مشجع على التداخل المعرفي الواعي والمبدع، وكانت دراسة المصطلح أو المفهوم في أي لون من ألوان المعرفة تقدم إضافة ثابتة لاستكشاف خبايا العلم، وفحص الأسس المفهومية التي تقوم عليها قواعده. ولئن بدت الدراسة المصطلحية في ثوبها الخارجي من اختصاص علماء اللغة واللسان، فإنها في بنيتها التصورية حقل اشتغال معارف وتخصصات متعددة؛[118] فأدوات المعرفة مصطلحات مقرونة بمفاهيم من خلال تصورات موضوعة، ثم إن المفاهيم تعرف انتشاراً واسعاً بين العلوم والمعارف، وكما سنرى فإن فكرة الانتشار، التي تجسد عملية التداخل بين المعارف، تسمح بالإشارة إلى خصوصية المفاهيم التي تنتمي إلى علم الأمس أو علم اليوم، أو التي تنتقل بين معارف كثيرة، ومعرفة قدرتها على التنظيم والشيوع والتوسع.

ونتساءل: لماذا الانتشار؟ إنه مصطلح له من الحمولة ما يؤهله للإشارة إلى ظاهرة طبيعية واجتماعية؛ فنحن نتكلم عن انتشار الوباء، وانتشار الحرارة، وانتشار

---

(116) القاسمي، علي. "النظرية العامة والنظرية الخاصة في علم المصطلح"، **مجلة كلية الآداب**، جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس، ع4، ص51.

(117) الدناي، محمد. "تداخل المصطلحات وإشكالية الأنماط الشعرية العربية الضائعة"، **مجلة كلية الآداب**، جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس، ع4، ص23.

(118) المسدي، عبد السلام. **المصطلحات المتصلة باللغة عند المتكلمين، أنموذج القاضي عبد الجبار**، ضمن: **الدراسة المصطلحية والعلوم الإسلامية**، ندوة انعقدت أعمالها أيام 8-9-01 جمادى الثانية 4141هـ/32-42-52 نونبر 3991م، منشورات جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، د.ت، ج2، ص665-765.

الفكرة، إلخ. غير أن هناك تميزاً يفرض نفسه في الحالات الأخيرة؛ ذلك أن الانتشار في تلك الحالات يكون له معنى قدحي، يدل على أن الأفكار لا تملك القوة الذاتية التي تمكنها من الانتشار إذا لم يكن هناك فاعلون ومستعملون، يرون فائدة أو مصلحة في ذلك. وغالباً ما يحيلنا الانتشار بهذا المعنى على الدعاية La propagande، والرغبة في توصيل أفكار ما بغير الطرق العلمية المعروفة،[119] مما يضفي على المصطلح أو المفهوم معاني كثيرة، ويوظف في مجالات وسياقات مختلفة، إلا أن باشلار يرى أن المفهوم يكون له معنى بقدر ما يتغير معناه، من سياق إلى آخر، ولا يعني هذا التغيير، بنظره، هزيمة للعقل أو تساهلاً، وإنما يبرز غنى الواقع وما للعقل من دور فعَّال. كما يعدّ تقدماً في الموضوعية، وتأكيداً للمقتضيات العقلية،[120] ذلك أن البحث التداخلي كثيراً ما يتجلى فيه انتشار المفاهيم وتنقلها، وتنوع سياقاتها ودلالاتها. وعليه، يمكن رصد ما يقوم من علاقات بين العلوم من خلال مسألة انتشار المفاهيم (La propagation des concepts)، وكذا حياة التجوال التي تعرفها تلك المفاهيم.

وسنتعقب بعض المفاهيم العلمية وتنقلها من علم لآخر؛ فالفكر الفلسفي مثلاً، يقوم على إنشاء المفاهيم وتوظيفها في الفهم والتفسير، وعلى تداول مناهج وأساليب في التفلسف وتبليغه، إلا أن استعمال هذه الأدوات الفلسفية لا يقتصر على المشتغلين بالفلسفة، وإنما يشاركهم فيه مختلف الدارسين من ميادين معرفية مختلفة؛ وهذه الميادين، هي الأخرى، تمُدُّ الفيلسوف بمفاهيم لا تلبث أن تصبح من جوهر فكره الفلسفي.[121] فعملية تبادل المفاهيم تبقى متواصلة بين المعارف،

---

(119) حدوش، محمد. **المفاهيم الرحالة من علم لآخر**، ضمن: **قضايا المصطلح في الآداب والعلوم الإنسانية**، إعداد: عز الدين البوشيخي، ومحمد الوادي، المغرب: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية– مكناس، سلسلة الندوات، رقم21، 0002م، ج1، ص041.

(120) واعزيز، الطاهر. "المفاهيم: طبيعتها ووظيفتها"، **مجلة المناظرة**، المغرب، س1، ع1، شوال 9041هـ/يونيو 9891م، ص71.

(121) واعزيز، الطاهر. "المناظرة في جوهر الفكر الفلسفي"، **مجلة المناظرة**، س1، ع1، شوال 9041هـ/ يونيو 9891م، ص7.

ويبقى للمفاهيم دور أساس في مدّ القنوات والجسور المعرفية بين العلوم،[122] على الرغم ممّا يرافق عملية الانتقال من صعوبات في الإدماج والتوظيف داخل حقل علمي آخر؛ إذ قد يخضع المفهوم لإضافات أو بتر أو تغيير كلي، لكن الأكيد أن انتقال المفهوم هو انتقال لشحنة إبداعية إضافية للعلوم الأخرى.

كما تسهم هجرة المفاهيم في تحقيق التداخل المعرفي بين الحقول المعرفية. ويقطع هذا التصور معرفياً مع تصورات أخرى مسكونة بفكرة مؤداها، أن ترحيل المفاهيم من مجال معرفي إلى آخر يرتبط بانحرافات منهجية لا حصر لها، وأن دعوى إمكانية استثمار مفاهيم تنتمي إلى نظم معرفية مختلفة في نظام معرفي آخر، قد يكون مضاداً في كثير من الأحيان، ليست إلا عملية تلفيق وخلط غير مبرر؛ ذلك أن المفهوم يرتبط بأرضه وموضعه الذي نشأ فيه، وإذا غادره تعرض للتشويه؛ لأن المفاهيم على العموم ضاربة في الخصوصية، ويذهب الرأي النقيض إلى أن المفاهيم عديمة الجنسية ومستقلة ذاتياً، ومتحررة من كل ارتباط بالحقل المعرفي المصدر،[123] وهذا الرأي الأخير، لا يخلو، بدوره، من تعسف وتعميم!

وتقوى عملية انتشار المفاهيم وانتقالها أو رحلتها لأسباب كثيرة، منها ما هو مرتبط بمشاكل تقنية أو صناعية أو مجتمعية، أو ما هو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعلم والمعرفة وسلطتهما،[124] وليس سهلاً دراسة حجم المبادلات "المفاهيمية" بين العلوم؛ إذ نفتقد إلى دراسات في هذا المجال إلا من بحوث محدودة تقتصر على حجم تبادل المفاهيم داخل حقل معرفي واحد، كما نجد في "الموسوعة العالمية للعلوم السياسية،" التي حصرت اهتمامها في انتشار المفاهيم بين علم

(122) Dogan et Pahre. *L'innovation Dans Les Sciences Sociales*, p. 163.

(123) حدوش. **المفاهيم الرحالة من علم لآخر**، مرجع سابق، ص531.

(124) Stengers, Isabelle. *D'une Science à l'autre: Des concepts nomades*, Éd., Paris: Seuil, 1987, p. 22.

عن: واعزيز، الطاهر. "من علم لآخر: المفاهيم الرحالة"، **مجلة المناظرة**، س1، ع1، شوال 1409هـ/ يونيو 1989م، ص137.

الاجتماع والاقتصاد وعلم النفس، وخلصت إلى أن تبادل المفاهيم بين العلوم أمر لا يمكن تجنبه،[125] وهذه المفاهيم المشتركة بين المعارف، تخضع في رحلتها لتغيرات كثيرة؛ فقد يتغير معناها كلياً، من خلال استعمال المفهوم لتعيين جديد، وفق السياق المعرفي المتداخل الذي يستثمر فيه.[126] وبالرغم ممّا تفيده المفاهيم الرحالة، من تداخل بين المعارف وتشجيع لعمليات الإبداع والتجديد، فإن بعض الباحثين يتضايقون من تنقّل المفاهيم بين معارف كثيرة، وتوظيفها في سياقات متضاربة، فاقترحوا إنشاء معجم للمفاهيم، تُضبط من خلاله عملية تنقّل هذه المفاهيم بين المعارف،[127] لرصد مسار التداخل بين المعارف على مستوى المفاهيم. واكتفى آخرون بالحث على ضرورة الحذر في استعارة المصطلحات، والانتباه إلى خلفياتها المتحيزة وغير الموضوعية.[128]

ويمكن أن نلحظ رحلة بعض المفاهيم بين المعارف على سبيل التمثيل لا الحصر؛ فأغلب المصطلحات تتم إعادة تعريفها وإدماجها في غاية جديدة، كما يتم الاحتفاظ بجزء أكبر من المعنى الأول، معه إضافات أو بتر، كما تمت إعادة مجموعة من مفاهيم العلوم الاجتماعية كـ(القيم)، لتوظيفها في حقول أخرى سياسية أو طبيعية.[129] ومفهوم (القيم) في أصله الأول كان يستعمل في الاقتصاد بمعنى تقني، لكن في العشرينات من القرن الماضي أخذ دلالات مقتبسة من مفاهيم علم النفس مثل "ميولات"، ومن مفاهيم علم الاجتماع مثل "مصالح"، وبعدها أخذ هذا المفهوم معاني مقتبسة من مفاهيم مجاورة مثل: سلوك، وشعور، وإجراءات، وقواعد، وأخلاق، وأيديولوجيا، وقانون، وعقوبات، ثم رحل إلى الأنثروبولوجيا

(125) Dogan et Pahre. *L'innovation Dans Les Sciences Sociales*, p. 166.

(126) Ibid., p. 165.

(127) Dogan et Pahre. *L'innovation Dans Les Sciences Sociales*, p. 294.

(128) المسيري. **العالم من منظور غربي**، مرجع سابق، ص972.

(129) Dogan et Pahre. *L'innovation Dans Les Sciences Sociales*, p. 163-164.

وإلى العلوم السياسية واستثمر بمعان أخرى جديدة في إطار حاجاتها الخاصة.[130]

ونجد أيضاً مفهوم (النظام) من المفاهيم التي تغيرت في رحلتها بصفة أساسية، وكان في معناه الأصلي مجموعة من القوانين والقواعد المقيِّدة بحكم القوانين، وقد ظهر لأول مرة في البيولوجيا، إلا أن أول من استعمل هذا المفهوم بشكل نموذجي هو ماكس فيبر الذي طوَّره في علم الاجتماع،[131] ثم رحل إلى الأنثروبولوجيا والعلوم السياسية، وهو الآن مفهوم مركزي في فروع عدة من علم الاجتماع.[132] أما مفهوم (الرأي العام)، فقد استعمل أولاً في التاريخ، ثم رحل نحو العلوم السياسية، ثم علم الاجتماع، ثم استقر في علم النفس الاجتماعي الذي أصبح فيه مفهوماً مركزياً. [133] ومفهوم (الوظيفة)، مرَّ من البيولوجيا إلى الأنثروبولوجيا، ثم إلى علم الاجتماع والعلوم السياسية.[134] ونجد مفاهيم أخرى لم تخضع لتغيير كبير، بل حافظت على نواتها الدلالية الصلبة بالرغم من تنقلها، مثل مفهوم (الإيكولوجيا)؛ أي علم البيئة؛ إذ هو مفهوم جديد تشكل لأول مرة في حقل الطبيعيات منذ أكثر من قرن، كانت حينها الإيكولوجيا محدودة في الإيكولوجيا النباتية، ثم اتسع المفهوم إلى الإيكولوجيا الحيوانية في المرحلة الأولى من القرن الماضي، ثم خلال الربع الأخير من القرن العشرين، توسع إلى الإيكولوجيا الإنسانية الذي استعمل في علوم كثيرة كعلم الاجتماع، والبيولوجيا، والجغرافيا، لكن لا أحد من هذه العلوم غيَّر من الدلالة المركزية للمفهوم، بالرغم من تعدد الاستعمالات والسياقات والحقول المعرفية.[135]

وذكرت إزابيل ستينغر (Isabelle Stenger) في كتابها "من علم لآخر: المفاهيم

(130) Ibid., p. 170.

(131) Ibid.,

(132) Ibid., p. 168.

(133) Ibid..

(134) Dogan et Pahre. *L'innovation Dans Les Sciences Sociales*.

(135) Ibid, p. 169.

الرحالة" (D'une science à l'autre: Des concepts nomades)، مجموعة من المفاهيم الأكثر دوراناً بين المعارف، والمحققة للتداخل والتواصل بين العلوم؛ مثل مفهوم (العلية)، وهو أكثر المفاهيم تنقلاً بين المعارف؛ ذلك أن كل العلوم تفترض مفهوماً "للعلية"، إلا أن العلية تختلف من علم لآخر، بحسب العلم ذاته هل هو صلب، أو غير ذلك، مثل العلوم الاجتماعية، ثم التمييز بين العلوم التي تُعمِل النظر في المفاهيم التي تقتضيها كعلم الاجتماع، والعلوم التي لا تتجاوز عملية الاقتباس، من غير أن ننسى أن فلاسفة العلوم يعدّون العلية مرحلة ما قبل العلم! فقد اختفت مثلاً من الأقوال الفيزيائية، ولكن هذا المفهوم ما زال حاضراً في ميادين أخرى كثيرة.[136] أما مفهوم (الجهاز العضوي)، فقد نشأ في البيولوجيا، ثم شاع وانتشر في الدراسات التي تطمح لأن يصبح لها وضع علمي. وصارت البيولوجيا، بهذا المفهوم، نموذجاً للعلوم الاجتماعية الناشئة.[137] وآخر المفاهيم التي تتبعت إزابيل ستينغر رحلتها مفهوم (المعايير) الذي انتقل إلى الاقتصاد بعد أن دخل من القانون إلى المنطق، ومن علم الاجتماع إلى البيولوجيا، ثم من اللسانيات التداولية إلى الفلسفة المتعالية.[138] ويبقى أن نعلم أنه إذا كانت القاعدة الذهبية التي يعلمنا إياها تاريخ الأفكار هي أن تنقل المفاهيم يؤدي إلى اغتناء الحقول المعرفية التي تستقبل هذه المفاهيم، فإن التداخل من خلال المفاهيم قد يؤدي إلى تشويش نظري عن طريق تحميل المفاهيم مضامين دلالية ووظائف إجرائية غير مناسبة. كما أن التداخل قد لا يكون دائماً مدعوماً ومؤسساً على نظرة بناءة ومنضبطة لمتطلبات العقلية العلمية أو الاعتبارات الأخلاقية، فتكون بعكس ذلك بدعم من إرادة سجالية غير بناءة.[139]

---

(136) Stengers, *D'une Science à l'autre: Des concepts nomades*, p. 68, 74–76.

عن: واعزيز. **من علم لآخر: المفاهيم الرحالة**، مرجع سابق، ص138–139.

(137) Ibid., p. 250.

(138) Ibid., p. 308–328.

(139) البعزاتي، بناصر. **مفهوم "الجدل" بين الخصوبة والتعسُّف**، ضمن: **انتقال النظريات والمفاهيم**، تنسيق: محمد مفتاح، وأحمد بوحسن، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 67، ط1، 9991م، ص921–031.

2 – التداخل على مستوى المناهج

حذر مجموعة من الباحثين من عملية نقل المناهج من علم لآخر، بدعوى الاختلاف بين العلوم، ثم إن المناهج ليست هي الواقع؛ أي إنها لا تمثل الوسيلة الفعالة لمقاربة الحقيقة العلمية، واستدلوا بالمؤرخين الذين استقدموا مناهج متعددة من حقول مختلفة، لكنهم وصلوا إلى استنتاجات واهية وخلاصات متناقضة؛[140] فبعض العلوم، بحسب هذه النظرة، لها خصوصيتها، وينبغي لها احترام حدودها وفرضياتها؛ كالعلوم الاجتماعية؛ لأن أي تجاوز من خلال نقل مناهج خارجية قد يؤدي إلى كوارث علمية محققة.[141] كما رفض بعض الباحثين المقاربات الرياضية لكثير من الظواهر، وذكروا أن تاريخ العلم أثبت أن الرياضيات كانت مصدر اختلال في الكسب العلمي.[142] كما رفضوا المنهج الإحصائي الذي فشل، بنظرهم، في الاقتصاد والعلوم الاجتماعية والعلوم السياسية والجغرافيا والأنثروبولوجيا، وهذا ما دفع بالمؤرخين إلى مقاومته.[143]

وفي مقابل هذه الرؤية المتوجسة من تداخل العلوم من خلال انتقال المناهج، تبرز رؤية أخرى تذهب خلاف ذلك الرأي، وترى أن المنهج استدلال، والاستدلال مستويات متعددة وآليات مختلفة؛ فالمستويات تقبل التداخل، والآليات هي الأخرى تقبل الامتزاج بنسب معينة بحسب الغرض الذي يرمي إليه المتداول.[144] فهذه الآليات ترحل من علم إلى آخر ومن قطاع إلى آخر.[145] كما أن تاريخ العلوم

---

(140) Dogan et Pahre. *L'innovation Dans Les Sciences Sociales*, p. 172–173.

(141) Ibid., p. 179.

(142) Ibid.,

(143) Ibid., p. 176.

(144) البعزاتي، بناصر. **الاستدلال، مستويات في القوة والوثاقة**، ضمن: **آليات الاستدلال في العلم**، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 48، ط1، 1241هـ/0002م، ص71–81.

(145) طه. **تجديد المنهج في تقويم التراث**، مرجع سابق، ص38.

يثبت أيضاً أن جميع العلوم تلجأ إلى الاقتباس المنهجي من خارج حدودها،[146] ثم إن بعض المناهج في ذاتها، لا تتحقق فعاليتها إلا إذا استخدمت في حقول معرفية مختلفة؛ لأنها مزودة بقابليات الاشتغال في مجالات علمية خارجية؛ فهي إن أردنا التدقيق "مناهج تداخلية"، والمناهج أصلاً وجدت لتطوير العلوم، والتقريب بينها في تحليل الظواهر وتحرير الإشكالات.

وعلم المناهج Méthodologie هو نوع من التكنولوجيا المفهومية التي تقبل الانتقال إلى فضاءات معرفية متعددة، وليست مقتصرة على مجال بعينه، فالمناهج بوصفها مفاهيم المفاهيم؛ عندما تتشكل وتستوي فإنها لا تنحصر في علم واحد، بل إن الأعمال المنهجية المهمة في تاريخ العلم، هي التي تطبق في أكثر من مجال، وتبقى متنقلة طوال الوقت،[147] فتطور الرياضيات مثلاً أدى إلى تطوير كثير من العلوم الاجتماعية والطبيعية، وقد فصَّل أفلاطون ذلك في كتابه "القوانين" L'arithmétique.[148] وقد أكد بوانكاريه ودوهيم دور الرياضيات الجوهري في جل العلوم؛ فأوضح دوهيم أننا حين نستخدم منهج الرياضيات في العلم، فإننا نعبّر به عن خصائص قابلة للقياس بطريقة اصطلاحية بحتة، وذلك عن طريق الرموز الرياضية التي تربط الظواهر بعلاقات فيما يسمى بـ"الفروض"، وتترابط الفروض على أساس الطرق الرياضية، والنتائج تترجم إلى لغة الفيزياء لكي تصبح تنبؤات.

وبشكل عام، يؤدي الفرض دوراً بارزاً في الفلسفة الاصطلاحية بأسرها،[149]

---

(146) Dogan et Pahre. *L'innovation Dans Les Sciences Sociales*, p. 173.

(147) Ibid., p. 171.

(148) Ibid., p. 174–175.

كما يشهد تاريخ الرياضيين أنهم في أغلبهم كانوا يعملون في مشكلات ترتبط بالحاجات السائدة في أزمانهم، مما له ارتباط بقطاعات معرفية وعملية مختلفة. انظر:

- ماكليش، جون. **العدد: من الحضارات القديمة حتى عصر الكمبيوتر**، ترجمة: خضر الأحمد، موفق دعبول، الكويت: المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، ع251، ص11.

(149) الخولي. **فلسفة العلم في القرن العشرين**، مرجع سابق، ص813–913.

كما يشتمل التنجيم و(الخيمياء) على بعض جوانب الحساب في شكل جداول لا تخلو من انتظامات، بالرغم من أن مكانة التعبير بالأشكال والعلاقات الرياضية لا تتجاوز الوصف المظهري، بينما في علوم الفلك والفيزياء والكيمياء تستغل الرياضيات بوصفها أداة منهجية لإعادة تنظيم الظواهر، وتنسيقها وتتبع تغيّرها، وصياغة نتائج الملاحظة والتجارب، بل يوجه التعبير الرياضي التجربة ذاتها. فالمنهج الرياضي مكّن علوماً كثيرة من استنباط القوانين التي تفسر تغير ظاهرة ما عن طريق معرفة الانتظام ونسبة التغير تلك.[150] واتّحد أيضاً الاستدلال الرياضي مع وقائع التجريب في بنية الفيزياء لإعطاء مثل أعلى للمعرفة بالكون، مما استوعبته العلوم الفيزيوكيميائية. كما تمثلت العلوم الحيوية المنهج الرياضي، وكذا العلوم الإنسانية، بالرغم من الاختلاف النوعي لظواهرها.[151] فقد أصبحت الرياضيات؛ إذن، تاج العلم الحديث وأقنومه، تتبارى العلوم في الاقتراب منها، والتداخل معها والتزود بلغتها حتى عدّت ملكة العلوم،[152] أو هي بتعبير إميل بوترو علم الضرورة،[153] أو بتعبير آخر لغة العلوم.[154]

---

(150) البعزاتي. **مفاصل التفاعل بين المعارف**، مرجع سابق، 86. ويتلخص اجتهاد الرياضي البارز بول في أنه عدّ الرياضيات شكلاً خاصاً من نظام فكري منطقي أكثر عمومية وشمولاً. ويهتم هذا المنطق بالعلاقات بين الأشياء، وخصوصاً بالعلاقات بين أصناف الأشياء. ويمكن لهذه العلاقات أن تكون عددية أو غير ذلك. انظر:

- ماكليش. **العدد: من الحضارات القديمة حتى عصر الكمبيوتر**، مرجع سابق، ص260.

(151) الخولي. **فلسفة العلم في القرن العشرين**، مرجع سابق، ص8.

(152) المرجع السابق، ص301.

(153) المرجع السابق، ص012.

(154) ماكليش. **العدد: من الحضارات القديمة حتى عصر الكمبيوتر**، مرجع سابق، ص01. والأكثر من ذلك أن الأعداد الرياضية عدّت في بعض الحضارات كائنات شبه مقدسة، تكمن في أساس عملية الخلق نفسها، فأبعدوها عن المعاملات والتحليلات اليومية، كما أحاطوها بهالة من الدين والفلسفة، حتى عدّها أفلاطون "أرواحاً ذهبية"، كما ارتبط التصور الرياضي عند الصينيين بمعتقداتهم وأفكارهم التأملية الممتزجة بالخرافة والسحر والتنجيم. انظر:

- ماكليش. **العدد: من الحضارات القديمة حتى عصر الكمبيوتر**، مرجع سابق، ص98-105.

أما المنطق فقد عرف هو الآخر تطورات كبيرة، من خلال انتقال النظرية الفيزيائية من عالم الموضوعات المعتادة إلى عالم الجزيئات الذرية؛ ذلك أن المنطق الكلاسيكي لم يعد كافياً لبناء النظرية الفيزيائية بشكل صوري ومتماسك. وقد أكَّد العالم الفيزيائي هانز رايشنباخ H. Reichenbach (1861–1953) أن الفيزياء ليست علماً موازياً للبيولوجيا، بل هي أوسع؛ إذ تحكم حركة المادة بأسرها، بينما لا تحكم البيولوجيا إلا قطاعاً محدداً من المادة، هو المادة العضوية الحية فحسب. لكن قوانين الفيزياء ومناهجها تشمل المادة الحية وغير الحية على السواء، بينما تقتصر البيولوجيا على دراسة تلك القوانين التي تسري مع القوانين الفيزيائية على الكائنات الحية، ومن ثمّ ينبغي أن تلحق القوانين البيولوجية بالقوانين الفيزيائية، حتى تكتسب دقتها وعموميتها، ومما يساعد على هذا الإلحاق أو التداخل أن البيولوجيا لا تستطيع الاستغناء بتاتاً عن القوانين الفيزيائية.[155] وبهذا تتداخل العلوم البيولوجية وتتكامل مع العلوم الفيزيوكيميائية، مما يمثل مجموعة علوم المادة الجامدة والحية، في مقابل مجموعة العلوم الإنسانية،[156] كما يحصل التداخل بين المجموعتين الكبيرتين في مستويات أخرى كثيرة؛ فقد لجأت الإنسانيات وعلم الاجتماع منها بصفة خاصة إلى الطبيعيات تقترض منها الوضعية وأساليبها الإحصائية.[157]

ويهمنا أن نسجل إذن أن اقتباس المناهج، مما يحقق التداخل بين العلوم، كان أمراً معمولاً به في تاريخ المعارف، ولا يلتفت إلى الآراء التي تقلل من أهميته في الإبداع؛ بدعوى أن المنهج المقتبس يتعرض لعمليات تفقير أثناء عملية تداخله واستثماره في حقل معرفي مخالف،[158] أو أن "الاختراق المنهجي" بين المعارف

(155) الخولي. **فلسفة العلم في القرن العشرين**، مرجع سابق، ص301–401.

(156) المرجع السابق، ص401.

(157) علي، نبيل. **الثقافة العربية وعصر المعلومات**، الكويت: المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، ع481، 4991م، ص02.

(158) Dogan et Pahre. *L'innovation Dans Les Sciences Sociales*, p. 180.

هو مصيدة نظرية، لتحريف المعرفة والحد من فعالية المنهج![159]

3 - التداخل على مستوى النظريات

يطرح التداخل من خلال النظريات والأفكار أسئلة عدة، لا تقل أهمية عن أسئلة إمكانات التداخل في ذاته وحدوده؛ من مثل: ماذا يحصل للفكرة أو النظرية عندما يجري استخدامها في ظروف مغايرة، ولأسباب جديدة، وفي ظروف غير متماثلة؟ وهل تفيدنا هذه العملية التداخلية في معرفة حقيقة النظرية المستخدمة، وحدودها، وإمكاناتها، ومشكلاتها الضمنية؟. من الدارسين من رأى أن هذه الحركة الانتقالية إلى بيئة جديدة، لا تخلو من فوائد أبداً؛ فهي تنطوي بالضرورة على عمليات ذهنية وبحثية معقدة، من التمثل إلى التأسيس إلى التوظيف، عبر النقل، والتحويل، والدوران، والتداول، والتبادل، إلى التداخل.[160] ولا يتحقق هذا الانتشار لنظرية ما، بنظر وليامز، إلا إذا كانت النظرية مؤثرة وقوية؛ حتى لا تتعرض أثناء ارتحالها للاختزال والتحريف،[161] والخوف من التحريف هو الذي جعل بعض الباحثين يجعل الكفاءة المزدوجة في مستخدم النظرية المتداخلة من شروط تحقيق تعاون فعال، وتداخل مثمر على مستوى النظريات بين المعارف والعلوم.[162]

وهناك من رأى أن العملية تكتنفها صعوبة بالغة، وتتطلب تفحصاً وتدقيقاً

---

(159) سعيد، **انتقال النظريات**، مرجع سابق، ص13.

(160) المرجع السابق، ص21.

(161) المرجع السابق، ص52.

(162) "Qu'est-ce que l'interdisciplinarité?", Sinaceur, p. 12-13.

كما تحدث إيان كريب عن انتقال النظريات وتداخلها من خلال مفهوم "التعددية النظرية"، لكنه نبَّه إلى أن الانتقال والتداخل يجب أن يحصل بحسب ما تقتضيه ضرورات البحث وشروط الإبداع. انظر:

- كريب، إيان. **النظرية الاجتماعية: من بارسونز إلى هابرماس**، ترجمة: محمد حسين غلوم، الكويت: المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، ع244، ص15.

وخيالاً واسعاً.[163] ومن الباحثين من نبه إلى خطورة نقل النظريات أصلاً، ولا سيّما تلك النظريات التي افتقدت القدرة على تحقيق الإبداع في الحقول التداخلية التي نقلت إليها؛ مثل نظرية التطور اليوم في حقل البيولوجيا وفي العلوم المجاورة لها.[164] كما أن بعض النظريات لا تكون مكتملة وفرضياتها غير صحيحة، ومن ثمّ هي غير معتبرة؛[165] فأي توظيف أو نقل لها قد يكون له انعكاس سلبي على البحث العلمي وعلى الحقيقة المعرفية. ولكن يبقى انتقال النظريات ومساهمتها في التداخل بين المعارف أمراً مألوفاً في تاريخ العلم، وعنصر إثراء وإبداع في المعارف، ووسيلة تحقيق ثورات علمية بارزة.

فنظرية داروين، مثلاً، جذبت باحثين في العلوم الاجتماعية والبيولوجية والأنثروبولوجية؛ إذ إن جون ليبوك Jhonn Lubbok استثمر نظرية أستاذه داروين في وضع نظرية أخرى للتطور الثقافي، كان لها أثر كبير في الأنثروبولوجيا الإنجليزية،[166] كما استخدمت نظريات بنيوية واجتماعية ووظيفية في تطوير حقل الدراسات القانونية،[167] واستخدمت المفاهيم النفسية في مجال نظرية المعرفة والدراسات الميتافيزيقية، وفي كثير من المباحث الفلسفية، مما جعل بينها رباطاً مشتركاً ومتداخلاً.[168]

ويمكن أن تنتقل النظريات من سياق ثقافي ومعرفي إلى سياق آخر مختلف، محدثة تداخلاً بين السياقين، كما نجد ذلك في علاقة الثقافة الغربية بالثقافة الإسلامية؛ إذ نشطت عمليات التداخل بين المجالين، من حيث انتقال

(163) Dogan et Pahre. *L'innovation Dans Les Sciences Sociales*, p. 195-196.

(164) Ibid., p. 195.

(165) Dogan et Pahre. *L'innovation Dans Les Sciences Sociales*, p. 266.

(166) Ibid., p. 193.

(167) Ibid., p. 205.

(168) بناني، عز العرب الحكيم. "دور علم النفس في تأسيس فلسفة اللغة لدى أنطون مارتي"، **مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية**، المغرب، ع5، خريف/شتاء 1991م.

النظريات بين حقول علمية كثيرة.[169] وقد تتبع المفكر إدوارد سعيد تنقل بعض النظريات من بيئة إلى أخرى، وركّز على نظريات جورج لوكاتش وميشال فوكو، وما تعرضت له أثناء رحلتها إلى سياقات فكرية مختلفة؛ فـ(جولدمان) مثلاً أعاد إنتاج نظرية لوكاتش ووظّفها بطريقة مختلفة. ولا يمكن نعت عمل جولدمان بسوء الفهم أو سوء التفسير، بقدر ما هو تدخل التاريخ والبيئة في تغيير الأفكار والنظريات، ونسج علاقات جديدة في إطار حقل متداخل بطرق مختلفة.[170] ثم إن جولدمان قام بعملية تكييف أفكار لوكاتش ونظرياته، لكي تتناسب مع ظروفه العلمية والوظيفية الخاصة؛ فلوكاتش كان يكتب بوصفه مشاركاً في أحداث بلده الفكرية والسياسية، أما جولدمان فأعاد توظيف نظرية لوكاتش في فضاء آخر، بوصفه مؤرخاً خارج وطنه، وباحثاً في جامعة السوربون.[171] ودرس إدوارد سعيد أيضاً التحولات التي طرأت على نظرية ميشال فوكو أثناء انتقالها إلى السياق المعرفي الأمريكي، عبر عملية تحويل عصر معرفي إلى آخر، ورصد كيفية تحرك شخصيات نيتشه ومالارميه، مثلاً، في الفضاء الأمريكي، وهي شخصيات محورية في كتاب "الكلمات والأشياء."[172]

إن انتقال النظريات، إذن، عملية أساسية في تحقيق التداخل المعرفي. وبالرغم مما يحدث للنظريات المتداخلة أو الـمُحَوَّلة من اختزال، أو تحوير، أو تحريف، فإنها تحيل لزوماً إلى سياقها النظري الأصلي، وتتماس مع نظريات أخرى،

---

(169) يقطين، سعيد. **انتقال النظريات السردية: المشاكل والعوائق**، ويفوت، سالم. **انتقال الأفكار الفلكية اليونانية إلى الثقافة العربية الإسلامية: كتاب الصناعة العظمى للكندي نموذجاً**، ضمن: سعيد. **انتقال النظريات**، مرجع سابق..

(170) سعيد. **انتقال النظريات**، مرجع سابق، ص22–32. كما أن لوكاتش نفسه استعار الكثير من مفاهيم هيغل وماركس وطورها، مثل مفهوم "الكل" ytilatoT، المؤسس لتصور أن المجتمع البشري والحياة يشكلان كلاماً متناسقاً ومتحداً. انظر:

– كريب. **النظرية الاجتماعية: من بارسونز إلى هابرماس**، مرجع سابق، ص303.

(171) سعيد. **انتقال النظريات**، مرجع سابق، ص22.

(172) المرجع السابق، ص03.

ثم تحاور نظريات أخرى بعد الانتقال، وربما أصبحت متمثلة في إطار نظرية أخرى معدّلة أو مغايرة. ونتيجة ذلك، فإن الحديث عن التداخل على مستوى النظريات يكون معقولاً من خلال استيعاب العناصر التي تحدده وتتحكم فيه، وهي عنصر الزمن والمكان، وعنصر الحاجات العلمية والوظيفية، وخصوصية بعض المرجعيات التي تعمل وراء تلك الحاجات.[173]

خاتمة

ينتهي بنا البحث إلى أن الدخول في مجال المعارف المتداخلة هو في المقابل خروج من الحصون الفكرية/التخصصية المغلقة، ومغادرة زنازين التقليد المستكين.

والبحث لم يكن همه وضع تصور نظري متماسك لتداخل المعارف، بقدر رغبته في الإشارة إلى ظاهرة عامة في الفكر الإنساني؛ لها دورها الرئيس في تحقيق الثورات العلمية الكبرى في جل لحظات تاريخ العلم؛ فقد كان علماء التداخل رواد قافلة الإبداع في رحلة الإنسان العلمية.

والمعرفة الإسلامية في تاريخها المزهر جسدت هذا المعطى من خلال التفاعل الذي حصل بين المعارف الدينية الإسلامية، والمعارف الاجتماعية والفلسفية والعرفانية مما يحتاج إلى دراسات معمقة أخرى، إضافة إلى ضرورة هيكلة الجامعات الإسلامية وفق مقتضيات التداخل والتكامل بين المعارف، وعدم الالتجاء إلى الفصل التخصصي إلا عند الضرورات المنهجية والتطبيقية الملحة.

---

(173) الدغمومي، محمد. **انتقال المفاهيم: نقد النقد**، ضمن: سعيد. **انتقال النظريات والمفاهيم**، مرجع سابق، ص64–74.